الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٨٢ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 182

Lundi - 28 - 12 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٨٢ « القاهرة في يوم الاثنين ١٤ شوال سنة ١٣٥٥ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

الضـــحك

للأستاذ أحمد أمين

ما أحوجني إلى ضحكة تخرج من أعماق صدري فيدوّي بها جوّي ! ضحكة حية صافية عالية ، ليست من جنس التبسم ، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء ، ولا هي ضحكة صفراء لا تعبر عما في القلب ؛ وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدري ، وأفحص منها الأرض برجلي ؛ ضحكة تملأ شدقيّ ، وتُبدي ناجذيّ ، وتفرج كربي ، وتكشف همي

ولست أدري لماذا تجيبني الدمعة وتستعصي عليّ الضحكة ، ويسرع إليّ الحزن ، ويبطيء عني السرور ، حتى لئن كان تسعة وتسعون سبباً تدعو إلى الضحكة وسبب واحد يدعو إلى الدمعة ، غلب الدمع وانهزم الضحك ، وأطاع القلب داعي الحزن ولم يطع دواعي السرور !

ولي نفس قد مهرت في خلق أسباب الحزن ؛ تخلقها من الكثير ، ومن القليل ، ومن لا شيء ؛ بل وتخلقها من دواعي الفرح أيضاً . وليست لها هذه المهارة ولا بعضها في خلق أسباب السرور ؛ كأن في نفسي مستودعاً كبيراً من اللون الأسود ،

لا يظهر مظهر أمام العين حتى تسرع النفس فتنترف منه غَرفة تسوّد بها كل المناظر التي تعرض لها ، ثم ليس لها مثل هذا المستودع من اللون الأحمر أو اللون الأبيض !

يقولون لي : اضحك يدخل على قلبك السرور ؛ وأنا أقول لهم : أدخلوا السرور على قلبي أضحك . فني المسألة « دَوْر » كما يقول علماء الكلام ، وكما يقول الشاعر :

مسألة « الدوْر » جرَتْ بيني وبين من أحِب
لولا مَشيبي ما جَفَا . لولا جَفَاهُ لم أشِب

وإلى الآن لم أدر من المصيب ! هل الضحك يبعث السرور ، أو السرور يبعث الضحك ؟ ودخلت المسألة في دور من الفلسفة مظلم كالعادة ، وانتقلت إلى بحث بيزنطي ، كالبحث في هل البيضة أصل الدجاجة أو الدجاجة أصل البيضة ؟ فلنغلق هذا الباب ولنعد إلى « الضحك »

يقول المناطقة في أحد تعريفاتهم للانسان : « الانسان حيوان ضاحك » ؛ وهذا عندي أظرف من تعريفهم الآخر : « الانسان حيوان ناطق » . فالانسان في هذا الزمان أحوج إلى الضحك منه إلى التفكير ، أو على الأصح نحن أحوج ما نكون إلى التفكير والضحك معاً

ولكن لمَ خصت الطبيعة الانسان بالضحك ؟

السبب بسيط جداً . فالطبيعة لم تحمّل حيواناً آخر من الهموم ما حمّلته الانسان ؛ فهمّ الحمار والكلب والقرد وسائر أنواع الحيوان أكلة يأكلها في سذاجة وبساطة ، وشربة يشربها في سذاجة وبساطة أيضاً . فاذا نال الحمار قبضة من تبن وحفنة من فول وغَرفة من ماء ، فعلى الدنيا العفاء ، ولكن تعال معي فانظر إلى الانسان المعقد المركب ! يحسب حساب غده كما يحسب حساب يومه ، وكما يحسب حساب أمسه ؛ ويخلق من هموم الحياة ما لا طاقة له به ، فيحب ويهيم بالحب حتى الجنون ، ويشتهي ويعقّد شهواته حتى لا يكون لعقدها حل ؛ فأذا حلت من ناحية عقدها من ناحية ؛ ثم إذا سذجت اللذة وتبسطت لم تعجبه بل أخرجها من باب اللذة ، وعقد أمله على لذة معقدة . وإذا تفلسف — والعياذ بالله من فلسفته — خرج بها عن المعقول ، وحاول أن ينال مافوق عقله ، ولم تعجبه الأرض والسموات مجالاً لبحثه ؛ إنما يريد الحقيقة والماهية والكُنْه . وويل له من كل ذلك ! أستغفر الله فقد نسيت أن أذكر هموم الموظف بالعلاوات والترقيات ، وما كان منها استثنائياً ، وما كان غير استثنائي ، وما يترتب على ذلك من معاشات وحساب تمغة ، وما إلى ذلك من أمور لا تنتهي . وهذا أيضاً من ضروب الفلسفة المظلمة ، فلنعد إلى الضحك

أقول إن الطبيعة عودتنا أن تجعل لكل باب مفتاحاً ، ولكل كرب خلاصاً ، ولكل عقدة حلاً ، ولكل شدة فرجاً ؛ فلما رأت الانسان يكثر من الهموم ويخلق لنفسه المشاكل والمتاعب التي لا حد لها ، أوجدت لكل ذلك علاجاً ؛ فكان الضحك

والطبيعة ليست مسرفة في المِنَح ، فلما لم تجد للحيوانات كلها هموماً لم تضحكها ، ولما وجدت الانسان وحده هو المهموم المغموم جعلته وحده هو الحيوان الضاحك

* * *

لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في «الصيدليات» بالضحك ، فضحكة واحدة خير ألف مرة من « برشامة أسبيرين » وحبة « كينين » وما شئت من أسماء أعجمية وعربية . ذلك لأن الضحكة علاج الطبيعة ، والاسبيرين وما اليه علاج الانسان . والطبيعة أمهر علاجاً وأصدق نظراً وأكثر حنكة . ألا ترى كيف تعالج الطبيعة جسم الانسان بما تمده من حرارة وبرودة ، وكرات حمر وبيض ، وآلاف من الأشياء يعالج بها الجسم نفسه ليتغلب على المرض ويعود إلى الصحة ، ولا يقاس بذلك شيء من العلاج المصطنع ؟

فانفجار الانسان بضحكة يُجرى في عروقه الدم ؛ ولذلك يحمر وجهه ، وتنتفخ عروقه . وفوق هذا كله فللضحكة فعل سحري في شفاء النفس وكشف الغم ، وإعادة الحياة والنشاط للروح والبدن ، وإعداد الانسان لأن يستقبل الحياة ومتاعبها بالبشر والترحاب

ولو أنصفنا — أيضاً — لعددنا مؤلفي الروايات المضحكة والنكت والنوادر البارعة التي تستخرج منك الضحك وتثير فيك الاعجاب ، وتُنشيء بك الطرب ، وهؤلاء الذين يُضحكون بأشكالهم وألاعيبهم وحركاتهم ؛ أقول لو أنصفنا

لمددنا كل هؤلاء أطباء يداوون النفوس ، ويعالجون الأرواح ، ويزيحون عنا آلاماً أكثر مما يفعل أطباء الأجسام ، ولمددنا من يستكشف الضحكات فى عداد من يستكشف دواء للسل أو للسرطان أو نحو ذلك من الأدواء المستعصية ؛ فكلاهما منقذ للانسانية من آلام ، مصلح لما ينتابها من أمراض

والضحك بلسم الهموم ومرهم الأحزان ؛ وله طريقة عجيبة يستطيع بها أن يحمل عنك الأثقال ، ويحط عنك الصعاب ، ويفك منك الأغلال — ولو إلى حين — حتى يقوى ظهرك على النهوض بها ، وتشتد سواعدك لحملها

***

ومن مظاهر رقى الأمم أن نجد نواحى الضحكات ، ملاءمة لاختلاف الطبقات . فللأطفال قصصهم وألاعيبهم ومضحكاتهم ، ولعامة الشعب مثل ذلك ، وللخاصة وذوى العقول الراقية المثقفة ملاهيهم وأنديتهم ومضحكاتهم . فإن رأيت أمماً — كأممنا الشرقية — حرم مثقفوها من معاهد الضحك وكانت مسلاتهم الوحيدة أن ينحطوا ليضحكوا ، أو يرتشفوا من الأدب الغربى والتمثيل الغربى ليضحكوا ، فهى أمم ناقصة فى أدبها ، فقيرة فى معاهدها . وهذا أيضاً ضرب من ضروب الفلسفة المظلمة ، فلنعد إلى الضحك

***

تعال معى نتعاهد على أن نرعى فى حياتنا جانب الضحك كما نرعى جوانب الصحة والمرض ، وجانب الهزل بجوار جانب الجد ، ولنتخذ الضحك علاجاً فى بعض أمورنا

قال لى صديق مرة إنه حاول أن يتغلب على همومه وأحزانه بعلاج بسيط فنجح . ذلك أنه إذا اشتد به الكرب ، وتعقدت أمامه الأمور حتى لا يظن لها حلاً ، انفجر بضحكة مصطنعة فسُرى عنه وتبخرت همومه

ويروى أنه كان عند اليونان فيلسوفان يلقب أحدهما الفيلسوف الضاحك ، والآخر الفيلسوف الباكى ؛ كان أولهما يضحك من كل شيء ضحكَ جدٍّ أحياناً ، وضحك سخرية أحياناً : يضحك من سخف الناس ومن وضاعتهم وحقارتهم ، ويبكى الثانى مما يضحك منه الأول

وقرأت مرة قصة لطيفة أن بئراً ركب عليها دلوان ، ينزل أحدهما فارغاً ، ويطلع الآخر ملآن ؛ فلما تقابلا فى منتصف البئر سأل الفارغ الملآن مم تبكى ؟ فقال : ومالى لا أبكى ؟ أخذ الرجل مائى وسيأخذه ، وسيعيدنى إلى قاع البئر المظلم ! وأنت مم تضحك وترقص ؟ فقال الفارغ : ومالى لا أضحك ؟ سأنزل البئر وأمتلئ ماء صافياً وأطلع بعد إلى النور والضياء !

وقد أراد مؤلف القصة أن يصور نفس الموقفين اللذين وقفهما الفيلسوف الضاحك والفيلسوف الباكى ، وأن الحياة مليئة بأشخاص يتولون عملاً واحداً ، ثم هذا ينظر إليه من الجانب السار الفرح ، وذاك ينظر إليه من الجانب الحزين القابض

فكن الفيلسوف الضاحك ، ولا تكن الفيلسوف الباكى . وكن الدلو الراقص ، ولا تكن الدلو الدامع . وجرب أن تلق الحياة باسماً أحياناً ، ضاحكاً أحياناً ، ولأجرب معك !

أحمد أمين

٧ـ القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما صاحبُ القلب المسكين فما علم أنها قد رحلتْ عن ليلته حتى أظلم الظلامُ عليه ، كأنها إذا كانت حاضرةً أضاء شيء لا يرى ، فاذا غابت انطفأ هذا الضوء ؛ ورأيتُـه واجماً كاسفَ البال يتنـازَعُـهُ في نفسه ما لا أدرى ، كأن غيابها وقع في نفسه إنذارَ حرب

لمـاذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلْتاعُـون بها ويرتمضون منها وهى أحجارٌ وآثارٌ وبقايا ؟ وما الذى يتلقاهم به المـكان بعد رحيل الأحبة ؟ يتلقاهم بالفراغ القلبيّ الذى لا يملأه من الوجود كله إلا وجودُ شخص واحد ؛ وعند هـذا الفراغ تقف الدنيا مليًّا كأنها انتهت إلى نهاية فى النفس العاشقة ، فتبطل حينئذ المبادلةُ بين معانى الحياة وبين شعور الحى ؛ ويكون العاشق موجوداً فى موضعه ولا تجده المعانى التى تمرُّ به ، فترجع منه كالحقائق تُلمُّ بالفراغ العقلىّ من وعى سكران

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما الذى يجعل فيك تلك القدرة الساحرة ؟ أهو فصلك بين زمن وزمن ، أم جمعك الماضىَ فى لحظة ؛ أم تحويلك الحياة إلى فكرة ؛ أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها ؛ أم تصويرك روحية الدنيا فى المثال الذى تحسُّه الروح ؛ أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنيةٌ على الانقلاب ؛ أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن ؛ أم رجوعك باللذة ترى ولا تمكن ؛ أم أنت كل ذلك لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ويمتلئُ بك وحدك ؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما هذه القوه السحرية فيك تجتذبُ بها الصدرَ ليضمك ، وتستهوى بها الفم ليقبلك ، وتستدعى الدمعَ لينفرَ لك ، وتهتاج الحنين لينبعث فيك ؟ أكل ذلك لأنك أثر الحبيب ، أم لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك ؟

***

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم ؛ وتلك هى طبيعة الألم الذى يفاجئُ الانسان من مكمن لذته وموضع سروره فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها ، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه فى قبر الماضى . يكون ألماً لأن فيه المضض ، وكآبةً لأن فيه الخيبة ، وذهولاً لأن فيه الحسرة ؛ وتتم هـذه الثلاثةُ الهموم بالضيق الشديد فى النفس لاجتماع ثلاثتها على النفس ، فاذا المسكين مبغوت مبغوت كأن الآلام أطبقت عليـه من الجهات الأربع فقلبه منها مَصْدُوعٌ مَصْدوع

وجعلت أعذلُ صاحبنا فلا يعتذل ، وكلما حاولت أن أثبت له وجود الصبر كنت كأنما أثبت له أنه غير موجود . ثم تنفس وهو يكاد ينشقُّ غيظاً وقال : لمـاذا رحلتْ ، لمـاذا ؟

قلت : أنت أذللت جمالها بهذا الأسلوب الذى ترى أنك تُعزُّ جمالها به ، وقد اشتددت عليها وعلى نفسك وتعنَّتَّ على قلبك وقلبها ؛ كانت ظريفة المذهب فى عشقها وكنت خشناً فى حبك ، وسوَّغتك حقاً فرددته عليها ، وتهالكتْ وانقبضتَ أنت ، ورفعتْ قدرك عن نفسها تحبباً وتودُّداً فخفضت قدرها عن نفسك من اطراح وجفاء ، واستفرغتْ وسعها فى رضاك فتغاضبت ، ونَـضَـتْ عن محاسنها شيئاً شيئاً تسأل بكل شىء سؤالاً فلم تـكن أنت من جوابها فى شىء

ومن طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعتْ أن تكون البادئة ، فالتوتْ على صاحبها وهى عاشقة ، وجاحَدَتْ وهى مُقرَّة ؛ إذ تريد فى الأوّلة أن تتحقق أنها محبوبة ، وفى الثانية أن يُقدَّم لها البرهان على أنهـا تستحق المهاجمة ؛ وفى الثالثة هى تريد ألا تأخذها إلا قوةٌ قوية فتمتحن هذه القوة ، ومع هذه الثلاث تأبى طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهـذا الامتاع شأنٌ وقيمة ، فتذيق صاحبها المرَّ قبل الحلو ليكبر هذا بهذا

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدئ صاحبها ؛ ثم ابتدأتْ ولم تجد الجواب منه ، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب ، فان الابتداء حينئذ يكون هو النهاية ، وينقلب الحب عدو الحب . وأنا أعرف امرأة وضعتها كبرياؤها فى مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها : سأتألم ولـكن لن أغلب ؛ فكان الذى وقع وا أسفاه — أنها تألمت حتى جُنَّت ، ولـكن لم تُـغلب . . .

قال : فما بال هذه ؟ أما تراها تبتدئ كل يوم رجلاً ؟

قلت : إنها تبتدئ متكسّبةً لا عاشقة ، فاذا أحبت الحب الصحيح أرادت قيمتَها قيمتَها فيما هو قيمتها . وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنفَ وهذه القسوة وهذه الروحية الجبارة ، فانها لذّات جديدة للمرأة التي لا تجد من يُخضعها . وفى طبيعة كل امرأة شئ لا يجد تمامه إلا فى عنف الرجل ، غير أنه العنف الذى أوله رقة وآخره رقة

* * *

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة ؛ والشئ الغريب يسمى غريباً فيكفى ذلك بياناً فى تعريفه ؛ غير أنه إذا وقع فى الحب سمى غريباً فلا تكفيه التسمية ، فيوصف مع التسمية بأنه عزيب فلا يبلغ فيه الوصف ، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شئ غريب ؛ ثم تبقى وراء ذلك منزلة للاغراق فى التعجب بين العاشق وبين نفسه ؛ وهكذا يشعرون

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب ، وكأن النبوة نبوتان : كبيرة وصغيرة ، وعامة وخاصة . فاحداهما بالنفس العظيمة فى الأنبياء ، والأخرى بالقلب الرقيق فى العشاق . وفى هذه من هذه شَبَهٌ لوجود العظمة الروحية فى كلتيهما غالبةً على المادة ، مجرِّدةً من إنسان الطين إنساناً من النور ، محركةً هذه الطبيعة الآدمية حركةً جديدة فى السموّ ، ذاهبةً بالمعرفة الانسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل ، واضعةً مبدأ التجديد فى كل شئ يمر بالنفس ، منبعثةً بالأفراح من مصدرها العلوى السماوى

بيدَ أن فى العشق أنبياءَ كذَبة ؛ فاذا تسفّل الحب فى جلال ، واستعلنت البهيميةُ فى عظمة ، وتجرد من إنسان الطين إنسان الحجر ، وتحركت الطبيعة الآدمية حركة جديدة فى السقوط ، وذهبت المعرفة الانسانية إلى ما هو الأقبح والأسوأ ، وتجدد لكل شئ فى النفس معنى فاسد ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلى — إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون ؟

لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة فى بعض العشاق كما يقلد النبوة الكبيرة فى بعض الدجّالين

* * *

هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان فى الحديقة وكنا دخلناها ليجدّد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به ؛ واستفاض كلامنا فى وصف تلك العبهرة[1] الفتانة التى أحلّته هذا المحل وبلغت به ما بلغت ، وكان فى رقة لا رقة بعدها وفى حب لا نهاية وراءه لمحب . وخيل إلى أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما

وأنفع ما فى حديث العاشق عن حبه وألمه أن الكلام يخرجه من حالة الفكر ، ويؤنسُ قلبه بالاتعاظ ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه ، ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك ، فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه الوهمية ، وتأتيه بالحقائق على قدرها فى اللغة لا فى النفس ؛ وفى كل ذلك حيلة على النسيان ، وتعلل إلى ساعة ، وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين فى هذا البلاء الذى يسمى الفراق أو الهجر

وكان من أعجب ما عجبتُ له أن صديقاً مرّ بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو يومئ إلى : أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم لا هو يقيم عذراً ولا أنا أقيم حجة ؛ وأحسب أن عندك رأياً فاقض بيننا

ويسأله الصديق : ما القضية ؟ فيقول وهو يشير إلى :

إن هذا قد تخرّق قلبه من الحب فلا يدرى من أين يجئ لقلبه برقعة ... وأنه يعشق فلانة الراقصة التى كانت فى هذا المسرح وزعم لى ... أنها أجمل وأفتن وأحلى من طلعت عليه الشمس ، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى فى كل ما يضىء القمر عليه ، وأن عينيها مما لا ينسى أبداً أبداً أبداً ... لأن ألحاظها تذوب فى الدم وتجرى فيه ، وأن الشيطان لو أراد مناجزةَ العفة والزهد فى حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل حيَله وأساليبه وقدّم جسمَها وفنها ...

فيقول له المسؤول : وما رأيك أنت ؟

فيجيبه : لو كان عنها صاحياً لقد صحا . إن المشكلة فى الحب أن كل عاشق له قلبُه الذى هو قلبُه ، وحسبها أن مثل هذا هو يصفُها . وما يدرينا من تصاريف القَدَر بهذه المسكينة ما عليها مما لها ، فلعلها الجمالُ حكم عليه أن يُعذَّب بقبح الناس ، ولعلها السرورُ قضى عليه أن يسجن فى أحزان

* * *

(١) هى التى جمت الحسن والجسم والامتلاء وجمال الخلقة من كل ناحية كهذه التى نحن فى وصفها منذ شهرين ...

في الطفـــولة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

زارني مرة في مكتبي صديق كريم، وكان معي في ذلك اليوم أصغر أطفالي؛ فقد تشبث بي وأبى إلا أن يصحبني. فلم أر بأساً من ذلك، وسأله الصديق بعد حوار طويل لم يعلق بذهني منه شيء «أبوك من..» — قالها هكذا بالعربيـة الفصيحة — والصبي حديث عهد بتعلم القراءة والكتابة فلم يفهم «من» هذه وظنها شيئاً معيباً أو غير لائق وهز رأسه منكراً؛ فكرر الصـديق السؤال، فقطب الصبي وقال: «توْ توْ» فنظر إلى صديقي فقلت: «يا صاحبي إنه يحسب أن (من) هذه مثل قولك «كاب» أو «قط» أو شيء آخر لا يليق في رأيه أن يكونه أبوه، ولو كنت قلت له «مين» بالعامية لفهم وأجابك، وما أظن به الآن إلا أنه وقع في نفسه منك أنك تسب أباه وإني لأخشى أن يحقدها عليك ولا يكون رأيه فيك بعـد اليوم إلا سيئاً، وأكبر ظني أنه سيحدث أمه عنك حديثاً لا يسرك أن تسمعه

وانقضت هـذه الحادثة وانطلق الغلام خارجاً ليلعب فقد سئم الحوار الذي ارتفعنا به عن طبقته. فقال صديق بحق: إنه موقن أن الصبي يشعر بوحشة مع أمثالنا من الكبار لأنه يحتاج إلى صغار مثله يفهمهم ويفهمونه فيسر بهم ويأنس. فقلت له إني لا أظن أن أبنائي يستوحشون حين أكون معهم لأني أستطيع أن أنزل إلى مستوى مداركهم فأكون معهم كأني أحدهم، فقال إن أمره ليس كذلك

وخرج صديقي فذهبت أفكر فيما قال فسألت نفسي: «لماذا لا نحسن نحن الكبار أن نفهم الصغار كما ينبغي أن يفهموا.. إننا لم نجيء إلى الدنيا كما نحن الآن.. ولم تلدنا أمهاتنا بأسناننا وشواربنا ولحانا ورؤوسنا الناضجة — أو التي نزعمها لغرورنا ناضجة — وإنما جئنا إلى الحياة صغاراً ثم كبرنا شيئاً فشيئاً. ولم تكن طفولتنا قصيرة العمر، بل كانت سنوات طويلات، وإن من الكبار لكثيرين لا يزالون أطفالاً وإن كانوا قد شابوا وشيخوا.. وإنا لنذكر حلاوة الطفولة وجمال عهدها ونحن إليها ونتمنى لو أمكن أن نرتد إلى ما كنا في أيامها بكل ما حفلت به.. ومع ذلك لا نستطيع بعد أن كبرنا أن نفهم الأطفال ونفطن إلى أساليب تفكيرهم وقد كنا مثلهم.. ومع أن الطفولة ليست غريبة عنا ولا أجنبية منا حتى يستعصي علينا فهمها فإن صفحتها تمحى من ذاكرتنا كل المحو فننقلب محتاجين إلى من يشرحها ويفسرها لنا ويبين لنا ما فيها ويعلمنا كيف نقرأها ونفهمها...

وأذكر أني وأنا طالب في مدرسـة المعلمين العليا كنت أضحك فيما بيني وبين نفسي حين أسمع أستاذنا يقول لنا بلهجة الجد إن علينا أن نعنى بأن ندرس الطفل؛ وكنت أقول لنفسي وأي حاجة بنا إلى درس المعروف المفهوم كأنه مجهول أو غامض. فلما كبرت وصار لي ابن أدهشني أني وجـدت أني محتاج أن أروض نفسي على النظر إلى الأمور بعين الطفل لا بعيني أنا؛ ولم تكن هذه الرياضة لا سهلة ولا خفيفة، فقد كانت تستنفد صبري ومجهودي معاً، ولكني كنت مضطراً إلى ذلك بعد أن شاءت الأقدار ألا يبقى له من أبويه سواي، ولولا ذلك لنفضت يدي من الأمر كله وتركت العبء لغيري

ومن فرط جهلي بالطفولة وثقل الشعور على نفسي بذلك أراني أحياناً أتمنى لو يرزقني الله عشرين أو خمسين طفلاً دفعة واحدة لا لأعذب نفسي بهم وأطير عقلي معهم، بل ليتسنى لي أن أدرس

وقلت له: يا صديقي المسكين، أوَ كلُّ هذا لها في قلبك. فما هذا القلب الذي تحمله وتتعذب به؟

قال: إنه والله قلب طفل، وما حبُّه إلا التماسُه الحنان الثاني من الحبيبة، بعد ذلك الحنان الأول من الأم. وكل كلامي في الحب إنما هو إملاء هذا القلب على فكره كأنه يخلق به خلق تفكيره

آه يا صديقي، إن من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب لا يستمر طفلاً بعد زمن الطفولة إلا في اثنين: من كان فيلسوفا عظيما، ومن كان مغفلاً عظيما

***

وافترقنا؛ ثم أردت أن أتعرّف خبره فلقيته من الغد، وكان لي في أحلامي تلك الليلة شأن عجيب، وكان له شأن أعجب

أما أنا فلا يعني القراء شأني وقصتي

وأما هو...؟

(يتبع — طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الطفولة كما ينبغى أن تدرس على نحو ما سمعت أن العلماء يدرسون ما لا أدرى فى معاملهم ، ولكن الحوائل دون ذلك كثيرة : منها أن المرأة ليست كالقطة أو الأرنبة ، ومنها إنى لا أستطيع أن أعول كل هذا الجيش من الصغار ، ومنها إنى خايق فى هذه الحالة أن أجن فلا أنا درست شيئاً ولا أنا أبقيت على عقلى

والضرورة تفتق الحيلة كما يقولون ؛ والحاجة أم الاختراع . وقد لجأت إلى وسيلة أخرى أخف محملاً وآمن عاقبة ، وفيها بعد ذلك لهو لا بأس به ، وتلك أنى أكون مع أطفالى كما يكونون أو كما أراهم يكونون ، وكما يبدو لى منهم ، فأخلع ثوب الكبر والوقار والاحتشام وأجعل من نفسى طفلاً مثلهم ، وأحاول أن ألبس هذا الثوب الذى نضته عنى الأيام بكرهى ولم تبق لى منه إلا ذكرى السعادة وأنا أمرح فيه . ومن العجيب أنا لا نذكر إلا أنا كنا سعداء به ؛ أما كيف كنا سعداء ، وما كان يسعدنا ، فهذا ما نتخيله فى كبرنا لا ما نعرفه على التحقيق . ولكن استعادة هذا العهد الذاهب عسيرة جداً . نعم أستطيع أن أقلدهم فيما أراهم يصنعون ، فأضحك مثلاً بكل جسمى لا بفمى وعينى فقط ؛ وأسقط على الأرض متهافتاً من شدة الضحك كما يفعلون ، وأقذف بالكرة بلا حساب أو تقدير فتصيب المرآة أو زجاج الصورة المعلقة أو أنف جالس يستغرقه الحديث الذى يخوض فيه مع جاره فينتفض مذعوراً ، ويسبقه لسانه بما لا يروى وما يجب أن يغتفر له ، ونرى ذلك نحن الأطفال فيترامى بعضنا على بعض من فرط السرور والجذل ، وتتصادم رؤوسنا ثم نفطن إلى غضب الذى أصيب أنفه وندرك أن هذا الغضب قد يكلفنا ما لا نحب فنذهب نعدو ويد الواحد منا على كتف صاحبه أو ممسكة بذيل ردائه ، ونتزاحم ونحن خارجون من الباب الذى لا يتسع لنا جميعاً ؛ فيقع أحدنا ويتعثر الباقون فوقه ، ويصيح المتأذون من الضجة التى أحدثناها وينهروننا ويزجروننا عن هذا العبث المزعج الذى يقلق الرؤوس ويعرض الأنوف والعيون للاصابات المباغتة ، فتخفت أصواتنا ويلصق بعضنا ببعض فى ركن من الغرفة الثانية ونكمن وراء خزانة أو غيرها مما يتفق وجوده ونصمت برهة ثم يشق علينا السكوت ، وتمل ألسنتنا الهدوء ، ويتذكر أحدنا ما أفاد من المتعة حين رأى المصاب فى أنفه يصرخ ويرفع يديه إلى وجهه ويصيح باللعنات الحرار والتهديد المرعب — يذكر أحدنا ذلك فيغلبه الضحك فيكركر ويساوره الخوف مما هدد به فيتناول بعض ثوبه ويضعه على فمه ليخفض صوت السرور ولكننا نرى ذلك منه فيعدينا فنفعل مثل ما يفعل ونصبح نحن الثلاثة أو الأربعة كأننا ثلاثة قطط أو أربعة — قطط صغار وليدة من فرط التدانى والاختلاط ، فهذا وجهه مدفون فى صدر ذاك ، وذاك رأسه تحت ذقن الثالث ، والثالث وجهه إلى الحائط وهو ينث ويغالب ضحكه ، والرابع قاعد على الارض ومخف وجهه فى طيات الثياب . وأحيانا أكون مع الأطفال قطاراً يسير متعرجا بين الكراسى والمقاعد والأثاثات المختلفة ، ولا يخلو سير هذا القطار الآدمى من حادثة فيكسر كوبا أو إبريقاً أو يقلب شيئاً ؛ وقد تقع الحادثة له — فيتعثر الذى هو القاطرة وتنكب المركبات على جسمه ؛ ولكن الحوادث — كائنة ما كانت — لا يراق فيها دم — إلا دم أصبع مجروح أحيانا — ولا تمنع البشر والضحك ، بل لعل هذه الحوادث هى التى تجلب السرور ولا تكون المتعة إلا بها

أفعل ذلك وغيره وأقدر عليه ، ولا يحس الأطفال الذين ألاعبهم وأغالط نفسى بأنى أحدهم ومثلهم أن هنالك أى فرق بينى وبينهم ، ولكنى أنا أحس بالفرق الذى يخفى عليهم . ومهما بلغ من استغراق اللعب لى فليس يسعنى أن أنسى أنى كبير وأنى مقلد ليس إلا . ولو نسيت لأذكرنى التعب الذى سرعان ما يحل بى ، وصدرى الذى يعلو ويهبط كموج البحر ، ودقات قلبى السريعة ، وأنفاسى المنبهرة ، فلا يلبث ذلك كله أن يردنى بعنف وغلظة إلى ما أتجاهله من الحقائق ؛ ولو لم يكن هناك شىء من هذا لكان حسبى من الفرق أن الأطفال يختلفون عنى فى التفكير والنظر والتقدير ، وأنهم يفعلون ما يفعلون بفطرتهم ، ولأن حيويتهم كلها فى أعضائهم وأنى أجاريهم متكلفا ؛ وهم يسرون بما يفعلون ، أما أنا فسرورى بمبلغ توفيقى فى التقليد والتمثيل لا فى الفعل نفسه ، أى أن سرورى بمحاكاتهم ومجاراتهم فنى فى الحقيقة ؛ أما هم فالأمر عندهم طبيعى ، وإفادة السرور راجعة إلى أنهم يرسلون نفوسهم على سجيتها

ولست ألاعب الأطفال لأسرهم فقط — وإن كان هذا وحده كافياً لتهوين ما أتكلفه من العناء والجهد — ولكنى أحب أن أدرس الطفولة بمحاولة الاندماج مع الأطفال وتمثل إحساساتهم وتصور نوازعهم على قدر ما يتيسر ذلك لى ومعالجة

استرداد القدرة على الصدور عن وحى الفطرة التى لا يكبحها العقل أو التهذيب أو العرف أو غير ذلك من اللجم التى يحسها الكبار كلما هموا بفعل شىء تغريهم به الفطرة

ولدرس الطفولة مزايا كثيرة هى السر فى ولعى بهذا الموضوع : منها أن الطفل فى بلادنا أشقى عباد الله . وإنه ليخجلنى أن أقول إننا نعذب الأطفال ونقمع فى نفوسهم الجديدة روح الطفولة ونعنها أن تتفتح وتزهو وتربو ؛ وأحر بنا إذا فهمنا الطفولة أن نحسن سياستها ونسعدها ونجعل عهدها حميداً وتمهيداً صالحاً لعهد الشباب ؛ وأنا موقن أن خير الآباء ليس هو الذى يرضى عن أبنائه أو عما يعتقد فيهم ويظن بهم — فقد يكون مخدوعاً وهذا هو الأغلب — وإنما أحسن الآباء هو الذى يرضى عنه أبناؤه ويفرحون به ويباهون ويعتزون

فسياستى مع أطفالى هى أن أسعى لاكتساب رضاهم عنى لا أن يكونوا بحيث أرضى أنا عنهم ؛ والفرق دقيق ولكنى أظنه واضحاً . وقوام هذه السياسة أن تدرك أن للطفل نفساً غير نفسك ، وأن لها استعداداً لعله غير استعدادك ، وأن مهمتك أن تعين الطفل على إنماء مواهبه الكامنة والانتفاع بهذا الاستعداد المضمر ، وأن توجد الفرصة لأبراز ذلك ، لا أن تأخذ عليه الطريق وتسده ؛ وبعد أن يبدو لك ما يشى بالاستعداد تسرع فى توجيهه وتقويته . ولا يمكن أن يتيسر ذلك إلا إذا تركت للطفل حريته . وكيف يمكن أن تعرف ما يخفى من أمره إذا كنت تلزمه حالة معينة ، أو تحتم عليه مسلكا لا يجوز له أن يعدوه أو ينحرف عنه ؟ ... وكيف ترجو أن تكون له شخصية متميزة بخصائصها إذا كنت تأبى عليه الاستقلال والحرية ؟ ... إن تربية الطفل هى فى الحقيقة تجربة يجربها المربى ولا سبيل إلى الاطمئنان إلى صحة النتيجة إذا كنت تبدأ برأى معين وفكرة لا تحيد عنها . وسلسلة الاختبارات المتعاقبة هى التى تشير إلى اتجاه النفس ، وتدل على ناحية الاستعداد المجهول ؛ فلا بد من ترك الطفل حراً ، ومن تعويده الاستقلال فى النظر والعمل وفى تلقى وقع الحياة ، وفى طريقة استجابته لهذا الوقع . ولا نكران أن الرقابة لا معدى عنها ، ولكنها يجب أن تكون بحيث لا يشعر بها الطفل ولا يتأثر بها . وكذلك ينبغى أن يكون التوجيه حين يجىء وقته ، وإلا فقد الطفل استقلاله وخيف أن يكون قد اتجه حيث أردت له لا حيث يدعوه استعداده الشخصى

ومزية أخرى هى أن الطفل يمثل الأدوار التى اجتازتها الانسانية والمراحل التى قطعتها كلها فى تاريخها الطويل . وصحيح أنها تكون فيه — أى فى الطفل — مختزلة جداً ، ولكن المرء يستطيع أن يفطن إلى بعضها وإن كان يفوته أكثرها . وحسبى هذا القدر لئلا ندخل فى مباحث علمية لا قدرة لى عليها

ومزية ثالثة لا يشق علىَّ الكلام فيها ولا يثقل فيما أرجو على القارئ ؛ وتلك هى أن الطفولة غرائز ساذجة وعواطف وإحساسات فطرية لم تهذب ولم تصقل ، ولكننا بالتربية نعود الطفل أن يكبح شهواته ويضبط أهواءه ويضع لنفسه اللجم والقيود ، وهذا شبيه بما يصنعه المجتمع بنا نحن الكبار . وقد يعلم القراء — أو لا يعلمون فما أدرى — أن سبيل المدنية أن تتخذ من النظم الاجتماعية مجارى تتدفق فيها العواطف والغرائز الانسانية الساذجة الفطرية . مثال ذلك أن الحب هو الذى يرجع إليه الفضل فى نظام الزواج الذى صلح به أمر المجتمع إلى الآن . ذلك أن الرجل كان فيما خلا من عصور الاستيحاش تأخذ عينه امرأة فتروقه فيخطفها أو يستحوذ عليها بالقوة أو غير ذلك من الوسائل ، ويستأثر بها ويقاتل دونها ما دام راغباً فيها ، ثم يدعها أو يبقيها بعد الفتور عنها إلى أخرى تستولى على هواه ، وكان الأمر كله فوضى ولكنه انتظم بالزواج ، فلا خطف الآن ولا قتال ولا عنف . وقد احتفر الرقى المجرى الاجتماعى فتدفقت فيه الحياة من هذه الناحية . وكذلك الوطنية ليست فى مرد أمرها إلا مظهر أنانية وأثرة ، ولكن نطاق الأثرة اتسع فشمل الجماعة المتماثلة كلها بعد أن كان قاصراً على القافلة الصغيرة مثلاً أو على الفرد قبل ذلك وهكذا إلى آخر ذلك ؛ وما من نظام اجتماعى إلا والأصل فيه غريزة من الغرائز الساذجة التى لم تهذب ولم تصقل

ونحن نصنع بالطفل ما تصنع بنا الحياة المدنية — نعلمه كبح الغرائز ونروضه على ضبط النفس وننشئه على إدراك الحدود والواجبات ونعده لحياة الجماعة المنظمة التى لا يسمح فيها بارسال النفس على السجية فى كل حال بغير كابح أو رادع أو ضبط

وشىء آخر لا سبيل إليه إلا الطفل ، وذاك أن من أراد أن يعرف حقيقة الانسان فليتأمل الطفل ؛ وأنا أومن بأن الانسان مخلوق لا شريف ، ولا كريم ، ولا خير ، ولا فيه خصلة واحدة

من خصال الخير ؛ وأنه لا يعرف لا خيراً ولا شراً ، ولا فضيلة ولا رذيلة ، وإنما يعرف نفسه وأهواءها وشهواتها وما يحسه من رغباتها ؛ وهنا موضع التحرز من خطا ؛ فأنا لا أقول إن الانسان خير بطبعه ، ولكني لا أقول إنه شرير بطبعه . وسبب ذلك أني لا أرى الغرائز الطبيعية لا خيراً ولا شراً ، وإنما هي غرائز طبيعية وكفى ، وعقلي لا يسمح لي أن أستنكر الفطرة التي بنينا عليها

ولا حاجة في الحقيقة إلى الرجوع إلى الطفل للاستدلال على أن الانسان ليس بفطرته خيراً أو فاضلاً أو كريماً إلى آخر هذه المعاني الحسنة ، فانه يكفي أن يفكر الانسان في هذه الشرائع والقوانين وما إليها وكلها حض على الخير ونهي عن الشر . ولماذا يحتاج الانسان إلى كل هذا الحض على الخير والتزيين له والتحبيب فيه ، وكل هذا الزجر عن الشر والتخويف منه والتهديد بالعقاب عليه إذا كان بفطرته خيراً عزوفاً عن النكر والسوء ؟ .

ولكن الطفل مع ذلك أبرز مثال محسوس لحقيقة الفطرة الانسانية . هات طفلاً وأعطه عصفوراً ، وانظر ماذا يصنع به .. يربط رجله ويشد عليها ولا يبالي ألمه ويروح يطوح به ذراعه مسروراً بالدائرة الوهمية التي يرسمها به في الهواء غير عابىء بما يكلفه ويحمله من الأذى ، أو يقبض على عنقه ويحبس أنفاسه ثم يلقيه على الأرض ويغتبط بأن يراه منطرحاً على جنبه ورجلاه إلى فوق ، وهو لا يحس أن هذا قسوة لأنه لا يعرف لا القسوة ولا الرحمة ، وإنما يفعل ما يفيده السرور الذي يطلبه والمتعة التي يشتهيها .

وتعطيه قطعاً من الحلوى ويجيء من يطلب منه واحدة ، فاذا كنت لم تعلمه ما نسميه الأدب فانه لا شك يضم يده الصغيرة عليها وقد ينثني فوقها ليحجبها عنك ويمنعك في ظنه أن تأخذ منها ما طمعت فيه

وتكون في يدك موزة أو تفاحة أو ما يشبهها من الفاكهة فاذا كنت لم ترضه على كبح النفس فستراه يشب ويمد كلتا يديه إلى ما في يدك ويصيح بك أن هاتها واحرم نفسك وأعطني

وتكون قد وعدت أخاه بشيء إذا حفظ درسه مثلاً فيحفظه فتهدي إليه ما وعدته ، ويراك أخوه فيغضب ويغار وينقم منك أنك اختصصت أخاه دونه بشيء ، ويدعوك أن تأخذ من أخيه وتعطيه هو ، ويسره أن تفعل ذلك ولا يبالي أخاه ولا يحفل أنه خطفت من يده الهدية الموعودة ، بل يروح يخايله بها ويكايده ويغتبط بأن يراه منغصاً محروماً دونه

ولا شكر على صنيع جميل ولا حفاظ لعهد ، ولا وفاء ولا ذكر ، إنما له الساعة التي هو فيها ، والشيء الذي يحس أن نفسه تطلبه ، وفيما عدا ذلك على كل شيء وكل إنسان ألف سلام

قد يقال إن هذا من الجهل وقلة الادراك ، فأقول : إني أتكلم عن الأصل قبل التهذيب والصقل . أما الادراك فهو كالرقي الذي وصل اليه الانسان على الأيام وبعد الحقب الطويلة ؛ وقد أسلفت أن الطفل يمثل الأدوار التي مرت بالانسانية من بدئها إلى حاضرها . فأنت ترى في سنة من عمر الطفل اختزالا لما قضت الانسانية دهوراً ودهوراً طويلة وهي فيه من الحالات . وأما التعليم والتهذيب فهذه هي اللجم والأعنة التي نضعها لضبط هذه الغرائز وكبح العواطف وتوجيهها إلى المجاري التي احتفرت على الأيام وتحدرت فيها حياة الجماعة المنتظمة المهذبة ؛ واللجام طارئ ، فاذا كان يكبح بما يشد ويصد فليس معنى هذا أن ما صار إليه الأمر بعد ها هو الذي كان قبلها

ومع ذلك هل نحن الكبار المثقفون المهذبون المصقولون خير من الأطفال الصغار ؟ . وللجواب عن هذا السؤال أرجو أن يسأل القراء أنفسهم ما ذا يكون الحال — حال المجتمع لو أمنتم عقاب الله وسطوة القوانين وحكم العرف ؟ . والقوانين لا تعاقب على بعض الرذائل مثل الكذب والخداع والنفاق ، فانظر من الذي لا يكذب أو يخادع أو يداهن وينافق — أحياناً كثيرة على الأقل ؟ أظن أنه لو أمن الناس البطش والعقاب لما بقي شيء لا يجترحونه

وتعال إلى الرجل الساكن الوقور الرزين الذي يملك زمام أعصابه ولا يدعه قط يفلت من يديه ، وادن منه وهو بين الناس والطمه على خده لطمة قوية ، ثم انظر ماذا يبقى من صقله وسكون طائره ووقاره ، ومن هذه القشرة التي كسته المدنية وزانته بها ؟

وأوجز فأقول إن الانسان يرتد إلى طباعه الفطرية إذا أوجدته في حالة تسمح لهذه الطباع بالظهور والتغلب على لجم المدنية مثل الجوع أو الغضب أو الألم أو الخطر على الحياة أو السكر . فليس الطفل وحده هو الذي يشهد أن الانسان في الأصل لا كريم ولا ذو مروءة أو شهامة أو غير ذلك ، وأنه إنما يكون كذلك اكتساباً وبالدربة والعادة وبفضل الرغبة والرهبة وغيرها مما يدفع إلى الحرص على المصلحة الذاتية ، ومن هنا كانت أهمية العناية

بالطفل ، فما ترك طفل وشأنه بغير عناية وتوجيه إلا فسد وصار شريراً وأمرءَ سوء . وهذا دليل آخر على أصل فطرة الانسان . وليس معنى هذا أن أصل فطرة الانسان سيئة ، وإنما معناه أن عوامل مانسميه الشر فى الدنيا أقوى وأشد إغراء وأعظم استيلاء على النفس ، وأن الخير مجهول لمصلحة الجماعة ومصلحة الفرد ضمنا

وليس أقدر من الأطفال على التخيل . ترى الواحد من الأطفال يمشى القهقرى بحذر فلا تفهم ، وتجده يحشر نفسه بين كرسيين ثقيلين ثم يعجز عن التخلص ، ويضيق صدره فيصيح بك ، أو يبكى فتنهض اليه وتسأله عن الخبر فيقول لك إنه كان يدخل السيارة فى الجراج فانحشرت وانكسر السلم ويكون معنى هذا أنه عد نفسه سيارة واستولت عليه هذه الفكرة فهى تستغرقه وتذهله عن كل شيء ، فلو كلمته لما سمع ؛ وتراه مرة أخرى يشير إلى الهواء ويكلم من لا وجود له ويدعوه أن ينزل ؛ فلو كان رجلاً لظننته قد جن ، ولكنه طفل يتصور أن فى الجو طيارة يحادث ربانها ويدعوه إلى النزول ليركب معه وهكذا

وللطفولة أحزانها كما أن لها مباهجها ومسراتها ، ولكن المزية أن الأحزان أو الهموم لا تكون إلا هموم هنيهة قصيرة تزول وتمحى ولا يبقى لها ذكر متى عرض شاغل آخر . ويعيش المرء منا مايعيش ويبلغ من العلم والعرفان والتجربة والفطنة ما يبلغ ولكنه لا يستكبر أن يتمنى أن يرد إلى هذه الطفولة الذاهلة . فاذا كان للسعادة معنى أو كان لها فى الدنيا وجود فهى فى عهد الطفولة ولا شك

ابراهيم عبد القادر المازنى

القصور المثلى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

للصروح والهياكل العظيمة ، كما للأشخاص والدول شخصيات تشغل مكانها فى حياة الأمم والعصور ، وتؤدى دورها فى الحوادث والسير العظيمة ؛ فاذا ذهبت الدول وفنيت الأجيال بقيت الصروح والهياكل شاهدة بما توالى عليها من الاحداث والمحن تلقى على الماضى نوعا من الضياء القاتم ، وتذكرنا بتلك الأدوار العظيمة التى لعبتها فى سير الدول والشخصيات الذاهبة

وما زالت طائفة كبيرة من هذه الصروح والهياكل العظيمة تزين العواصم الأثرية القديمة ؛ ولدينا فى مصر عدة من الهياكل الفرعونية الخالدة لعبت أدوارها العظيمة فى تاريخ مصر القديمة ، ولكنا لا نتحدث عنها هنا لأنها تقترن بعصور تغيض منا فى ظلمات الماضى البعيد ؛ ولم يبق بمصر من الصروح الاسلامية العظيمة سوى المساجد ، وهى ليست مما نعنى به فى هذا الفصل

وإنما نريد أن نتحدث هنا عن بعض الصروح الأوربية العظيمة التى شهدناها ، والتى تعتبر بما لعبت من أدوار خطيرة فى الدول والعصور التى قامت فيها صروحا « مثلى »

***

إن أسماء صروح كاللوڤر وڤرساى والڤاتيكان وقصر الدوجات لا تمثل الهياكل والأبنية العظيمة التى تعرضها هذه الصروح فقط ، ولا تقف أهميتها وروعتها عند النقوش والذخائر الفنية العظيمة التى تحتويها ، ولكن أعظم ما تدلى به هذه الصروح فى نظرنا هو تراثها المعنوى والحوادث والذكريات العظيمة التى اقترنت باسمها

فقصر اللوڤر مثلاً يمثل عصوراً بأسرها من حياة الملوكية الفرنسية ويعرض لنا فى أبهائه الشاسعة ونقوشه وذخائره طرفا من روعة هذه الملوكية وأيام عظمتها وازدهارها ؛ هذا جناح هنرى الثانى ، وهذا جناح زوجه كاترين دي مديتشى التى تملأ سيرتها كثيراً من القصص الشائق ؛ وهذه غرف ولديها فرانسوا الثانى وشارل العاشر ؛ وهذا جناح هنرى الرابع ؛ ولويس الثالث عشر ، وهذا جناح الملك العظيم لويس الرابع عشر : فى تلك الغرف والأبهاء الشاسعة عاشت الملوكية الفرنسية أحقابا تشرف على مصاير أمة عظيمة ، وفيها كم دبرت أمور وكم قررت شؤون خطيرة كان لها أكبر الأثر فى سير التاريخ الأوربى ؛ كان اللوڤر مدى قرنين قلب فرنسا النابض ، وأحيانا قلب أوربا بأسرها شأنه فى عهد لويس الرابع عشر

وقد كان قصر ڤرساى يكمل حياة اللوڤر ؛ وكان فى أواخر عهد الملوكية الفرنسية ملاذها ومستقرها : هذا جناح لويس الرابع عشر الفخم ، وهذه غرفة نومه ، وهذا بهو عمله ومتزينه ، وهذا جناح الملك الخليع لويس الخامس عشر قد أثث بأثاث ما يزال إلى اليوم نموذجا فنياً رائعاً ؛ أجل وهذا جناح خليلاته دوباردى ودى بومبادور الخ على مقربة من جناح زوجه الشرعيه ، مارى لكزنسكا ، وهذه أبهاء الحفلات الباذخة التى كان ينفق عليها بغير حساب ، وكانت تثقل كاهل الشعب المسكين ؛ وأخيراً ها هوذا « بهو المرايا » الشهير الذى عقد فيه مؤتمر الصلح فى سنة ١٩١٩ وأملت فيه فرنسا وحلفاؤها الظافرون إرادتهم على ألمانيا المنهزمة ووقعت فيه ألمانيا وثيقة انكسارها وذلها

فى هذه الربوع والمواطن الصامتة التى تغدو اليوم آثاراً يحج اليها السائح كان يكتب تاريخ فرنسا وتاريخ أوربا

***

على أن الأحداث والذكريات التاريخية الرائعة لم تجتمع قدر اجتماعها فى صرحين عظيمين ، هما قصر الڤاتيكان فى رومة ، وقصر الدوجات فى البندقية (ڤينزيا) فأما الڤاتيكان فهو بلا ريب أجل آثار النصرانية وأعظمها ؛ وفى الڤاتيكان الذى غدا علماً على البابوية والكرسى الرسولى ، تتمثل عظمة البابوية ، وبذخ البابوات ، وكل ما فى عصر الأحياء من عبقرية وجمال وافتنان ؛ وليس الڤاتيكان قصراً تستطيع أن تحيط برؤيته فى ساعات ، وإنما الڤاتيكان مدينة من القصور الرائعة يقتضى التجوال فيها والتمتع بروائعها أياماً عديدة . وقد نشأ الڤاتيكان فى أواخر القرن الرابع عشر قصراً متواضعاً إلى جانب كنيسة القديس بطرس ، وغدا من ذلك التاريخ مركز الكرسى الرسولى ، ثم تعاقب عدة من البابوات على إنشائه وزخرفته ، فأقاموا إلى جانب القصر

القديم قصوراً وأجنحة جديدة بلغت أعظم مبلغ من الفخامة والبهاء ، نخص بالذكر منها مصلى سكستوس الرابع المسمى كابيلاسستنا ، والذى خلف ميشيل آنجلو فوق جدرانه من ريشته آيات خالدات ، وجناح آل بورجيا الذى أنشأه اسكندر السادس ، وأفاض عليه أبدع ما تمخض عنه الأحياء من بذخ وزخرف وبهاء ؛ وجناح جوليوس الثانى (لوچى) ، وهو الذى زينه رافائيل بآيات باهرات من فنه وريشته ؛ ولبث البابوات يزيدون فى صروح الڤاتيكان وفى زخرفته حتى غدا مجموعة من القصور الشامخة الباذخة ، تضم عشرات من الأبهاء والأروقة الفخمة ، وعشرات الساحات والأفنية المظيمة ، ونحو عشرة آلاف غرفة . ولا يستطيع القلم مهماً أوتى من قوة أن يصف ما تزدان به تلك الصروح والأبهاء الخالدة من نقوش وزخارف وصور تأخذ الأبصار بجمالها وروعها ؛ ويكفى أن نقول إنها مثوى لأبدع وأروع ما تمخضت عنه عبقرية الجمال والفن فى أعظم وأزهى العصور

على أن روعة الڤاتيكان لا تقف عند جمال الفن ؛ وإنما تمثل بنوع خاص فى ذلك الدور الخطير الذى أداه فى تاريخ النصرانية ، وتاريخ البابوية ، فقد كان الڤاتيكان وما زال رأس الكنيسة المفكر وروحها المسير ، وكان مدى عصور طويلة مبعث تلك السلطة الزمنية القوية التى زاولتها البابوية مع سلطتها الروحية جنباً إلى جنب ؛ وكانت أبهاء الڤاتيكان ومخادعه مسرحاً لكثير من الحوادث التاريخية البارزة ، وكانت أيضاً مسرحاً لكثير من المؤامرات والدسائس والمآسى المروعة

وليس بين صروح أوربا الأثرية كلها صرح يثير ما يثيره الڤاتيكان فى النفس من روعة وإجلال وإعجاب ؛ وسيبقى الڤاتيكان عصوراً علما على عظمة البابوية الذاهبة ، وسيبقى حلية الآثار النصرانية والكنسية كلها

ولنتحدث بعد ذلك عن قصر الدوجات ذلك الصرح الذى لا يدلى مظهره المتواضع بذلك الدور المظيم الذى لعبه فى تاريخ أعظم جمهوريات العصور الوسطى

كان قصر الدوجات Palazzo ducale الذى لا يزال يجثم بحناياه العربية البيزنطية وشرفاته المنخفضة بجوار كنيسة القديس ماركو على المنعطف الذى يصل بين البحر وبين ميدان سان ماركو (القديس مرقص) منزل الدوجات ومستقر الهيئات النيابية التى امتازت بها نظم البندقية فى العصور الوسطى ، مثل المجلس الأعلى ومجلس العشرة الشهير الذى يثير اسمه كثيراً من الذكريات المروعة ؛ وكان رأس الجمهورية المفكر وقلبها النابض ، يكتب فيه تاريخها وتدبر فيه أسباب قوتها وعظمتها ، وتضطرم فيه تلك الدسائس والمؤامرات الخطيرة التى تدفع بها إلى براثن المحن الدموية أو الفوضى ، وكان أخيراً حرمها المقدس وملاذ دستورها ، وسلطانها الأعلى

ومن هم أولئك الدوجات الذين سمى الصرح العتيد باسمهم ، وتوج اسمهم تاريخ البندقية الحافل من مبدئه إلى منتهاه ؟ كان الدوج (أو الدوق[1]) رئيس الجمهورية وحاكمها الأعلى ، وكان فى المبدأ يعين بالانتخاب على يد جميات من الشعب ، ثم أنشىء المجلس الأعلى فى القرن الثانى عشر من نواب يعنيهم زعماء الولايات ، ومنهم ينتخب الدوج والوزراء وكبار القضاة ؛ وكانت البندقية جمهورية ، ولكن جمهورية ارستقراطية ، تقبض الارستقراطية على مصايرها وتستأثر فيها بالحكم والسلطان ؛ وكان الشعب يجاهد طول الوقت لكى ينتزع لنفسه تلك السلطات التى تستمد منه وتدار باسمه ؛ ولكن تلك الارستقراطية الطاغية المستنيرة معاً كانت حريصة على سلطانها وزعامتها ؛ وفى القرن الثالث عشر استطاعت الارستقراطية أن تقصى الشعب نهائياً عن كل اشتراك فى الشؤون العامة ، وذلك بأن حول المجلس الأعلى من هيئة نيابية انتخابية إلى هيئة وراثية خالدة ، وبذا قامت فى البندقية تلك الارستقرطية الوراثية القوية التى يصفها المؤرخ الفيلسوف سسموندى بقوله : « كانت فياضة الحزم والغيرة والطمع ، جامدة فى مبادئها ، راسخة فى سلطانها ، تقترف باسم الحرية طرفا من أشنع مثالب الاستبداد ، مشاكسة غادرة فى السياسة ، دموية فى الانتقام ، متسامحة مع الفرد ، باذخة فى الشؤون العامة ، مقتصدة فى الادارة المالية ، عادلة نزيهة فى القضاء ، قديرة فى إزهار الفنون والزراعة والتجارة ، محبوبة مطاعة من الشعب ؛ يرتجف النبلاء الذين تمثلهم منها فرقا » ثم اختارت

(١) من اللاتينية D x أعنى الأمير أو الدوق

الارستقراطية مجلس العشرة الشهير ، وخول سلطات استثنائية وعهد إليه بحماية الجمهورية وسحق كل جريمة وثورة يدبرها الخوارج والطامعون ، فتم بذلك للاستقراطية سلطانها المطلق ، وغدت كل شيء في نظم الجمهورية وحياتها ومصايرها

وقصر الدوجات من أقدم الصروح التاريخية يرجع بناؤه إلى نحو ألف عام ، ولكن القصر القديم أحرق وزالت معالمه غير مرة خلال الحوادث والفتن ، وأعيد بناؤه ، وتعهده الدوجات بالانشاء والزخرف حتى اتخذ شكله الحالي منذ القرن الرابع عشر ؛ وتشرف واجهة القصر الأمامية التي تذكرنا حناياها المرمرية بالمشرفيات الشرقية ، على منعطف سان ماركو ، وتشرف واجهته الخلفية على قناة من الماء ؛ ويقع في مواجهته بناء عتيق قاتم هو سجن الدولة القديم ؛ وتربط الصرحين قنطرة معلقة هي قنطرة الزفرات الشهيرة (بونتي دي سوسبيري) التي يمثل اسمها في كثير من القصص المؤسي ، والتي يقال إنها لعبت أيما دور في مصارع النبلاء والسادة ، يدفعون منها إلى السجن أو يلقون إلى الماء

وتتكون أبنية القصر من طبقات ثلاث تشرف من الداخل على فناء مستطيل واسع ، وليس في مظاهرها الخارجية كثير من الزخرف ، ولكنها تبدو قاتمة عابسة تؤذن بأنها كانت أيام مجدها ملاذ الكتمان والصرامة ، فاذا نفذت إلى الداخل أخذتك روعة الغرف والأبهاء الشاسعة الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بأجمل ما خلقته عبقرية الأحياء من النقوش والصور ؛ ولقد زينت شرفات الطبقة الأولى بتماثيل عدة من مشاهير الدوجات ، وزينت إحدى غرف الطبقة الثانية بطائفة كبيرة من الدروع والأسلحة القديمة التي كان يرتديها أو يتقلدها الدوجات أو قادة الجمهورية ؛ بيد أن أوروع ما في هذا القصر الشهير هو الطابق الثالث حيث يوجد جناح الدوج والابهاء الرسمية التي تحيط به ؛ هذا هو بهو اجتماع المجلس الأعلى لا يزال بتقاسيمه ومقاعده الخشبية القديمة وفي صدره مقعد الدوج ؛ وهذا هو البهو الأكبر حيث تنعقد الاجتماعات الرسمية الكبرى ، وهنالك في أعماق القصر وراء هذه الأبهاء الشاسعة توجد غرفة متوسطة متواضعة أقيمت في صدرها عدة مقاعد خشبية هي غرفة اجتماع مجلس العشرة ! وهنالك بالضبط عشرة مقاعد يتوسطها مقعد الدوج ؛ وفي تلك الغرفة المتواضعة التي يخيل اليك أنها تمثل روح العصور الوسطى ، وتمثل الصرامة والغدر والسلطان المطلق معا ، كانت تبرم أهم الشؤون وأخطرها ، وتصدر أعظم القرارات في حياة الجمهورية ، ولقد زينت جدران هذه الأبهاء وسقفها بطائفة بديعة من الصور التاريخية رأينا بينها صورة لافتتاح الصليبيين والبنادقة لقسطنطينيه سنة ١٢٠٣ وموقعة لبانتو البحرية الشهيرة التي هزم فيها الترك سنة ١٥٧١

وقد عرفت مصر الاسلامية عظمة الجمهورية البندقية وعظمة الدوجات في العصور الوسطى وكانت ثمة في عصور السلام علائق ومخاطبات منتظمة بين بلاط مصر وبين قصر الدوجات ، وكان البلاط المصري يخاطب « الدوج أو الدوك » باسمه مقرونا بالقاب التعظيم والتكريم

* * *

هذه طائفة من الصروح العظيمة التي تمثل بماضيها الحافل عصوراً وأحقاباً عظيمه من التاريخ ؛ وهي بذلك صروح مثلى كالأمم والشخصيات المثلى ، لا تقف عظمتها عند تلك الأبنية الشامخة وتلك الروائع الفنية التي أسبغتها عليها عبقرية الأجيال والعصور الزاهرة ؛ ولكن أشد ما تمثل عظمتها في تلك الصفحات الخالدات التي سجلتها في بطون التاريخ ، وذلك التراث المعنوي الزاخر الذي يغمر كل رحابها وجنباتها الصامتة

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

أثر الترف
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

الترف من مستتبعات الحضارة ، تتجه اليه الأمم عقب عصور النهضات ، إذ يلذ لها الركون إلى الراحة واجتناء ثمرات مجهوداتها التي بذلتها في عهود النهوض والكفاح والتمهيد ، وتميل إلى الاستمتاع بخيرات الحياة من دعة ولذة وسرور في ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد أن توطدت أركانها ، وفي بحبوحة الثروة والنعمة اللتين أنالهما جهاد السنين والأجيال ، فيهجر الشعب رويداً رويداً حياة الخشونة والقناعة والجد ويستكثر من أسباب الراحة والبهجة ، وإشباع مطالب الجسم والنفس ، وبدوات الخيال والشهوة

ويكون أشد الأمم إقبالاً على وسائل الترف ومضياً إلى غاياته ، أشدها من قبل تخشناً في العيش ، وأعظمها جلاداً في ميدان تنازع البقاء ، وأتمها ظفراً وغلبة على البلدان ، لما تجنح اليه من الراحة بعد الجهد ، والاستمتاع بعد الحرمان ، ولما تغدقه عليها انتصاراتها من أسلاب أعدائها وأرزاقهم ، وما تطلّع عليه من وسائل لهوهم وترفهم ؛ ومن ثم انتشرت موجات هائلة من الترف في مصر الفرعونية عقب فتوحها الكبيرة في آسيا ، وفي أثينا عقب امتداد سيادتها على سواحل بحر الأرخبيل وجزره ، وفي روما بعد اتساع سلطانها شرقاً وغرباً

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية خرجتا من بداوة وخشونة عيش إلى حضارة وحياة دعة ؛ وكلتاهما أقامتا امبراطورية مترامية التخوم تعج نواحيها بالخيرات والكنوز ، وسرت اليهما من جراء ذلك عدوى الترف وبدا أثرها في أدبيهما . بيد أنهما تفاوتتا تفاوتاً كبيراً في مدى تأثرهما بذلك الترف ، فكانت الأولى على الأرجح أعظم الأمم أخذاً بوسائله وتفنناً في ضروبه ؛ وكانت الأخيرة أقلها انقياداً لتياره وأشدها تشبثاً بأهداب الاعتدال

فالأمة العربية ينقسم تاريخها الاقتصادي إلى ثلاثة أطوار كبيرة : فالطور الأول وهو عهد الجاهلية أقرب إلى الفقر والخشونة التي فرضتها على العرب طبيعة بلادهم الضنينة ، مما أورثهم صفات القناعة والصبر والجلد واحتمال المشقات ، كما أورثهم الجود وقرى الأضياف ، فتمدحوا بكل هاتيك الصفات وامتلأ بها شعرهم ، وجاء ذلك الشعر في جملته قوياً متسماً بالرجولة مثيراً للاعجاب ؛ وندر في ذلك العهد شعر المجون والخلاعة ووصف دواعي الرفاهية ومظاهر الحياة الناعمة ، بل كان السادة يتبرأون من الانقياد لشهوات الجسم والنفس . ومن روائع آثار ذلك في الأدب قول حاتم الطائي :

وإني لأستحيي صديقي أن يرى ... مكان يدي من جانب الزاد أقرعا
وإنك مهما تُعط بطنك حقه ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول عنترة :

يُخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم
وأرى مغانم لو أشاء حويتها ... فيصدني عنها الحيا وتكرمي

وبقيام الدولة العربية دخل العرب في الطور الثاني : طور الحضارة والرفاهية والترف ، وتدرجوا في الأخذ بأسباب ذلك مع مرور الزمن حتى أوفوا على الغاية . ولا غرو فقد اجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكد يجتمع لغيرهم ؛ فأن نجاحهم الحربي الفجائي أوقع في أيديهم أغنى بقاع الأرض وأخصبها وأعظمها حضارة وترفاً لعهدهم ، وأغدق على كبرائهم ومقاتلتهم فيضاً متلاحقاً من الأموال ، وأدخل في حوزتهم شاسع الأملاك ، وأقام في خدمتهم الجمّ الغفيرَ من الموالي ؛ وسمحوا هم لشتى الأجناس بمخالطتهم والاقامة بين ظهرانيهم ، فجاءت الأمم المقهورة في ميدان الحروب تسلط على الأمة الغالبة ما بذتها فيه من أسباب الرفاهية واللذاذة ، وهي التي كانت من قبلُ سبب سقوط عزمتها وإدبار دولتها

وكان كل ذلك جديداً على أعين العرب الذين قضوا الأجيال في شظف البادية وتقتيرها ، فاندفعوا يصيبون من تلك اللبانات ما حرموه طويلاً ، وأغرقوا في استمراء تراث الأمم المغلوبة كما يغرق الوارث الذي طال حرمانه في تبذير ثروة الغني الراحل . وكأنما تعجل العربُ في تراث كسرى وقيصر ما وُعدوه في الدار الآخرة من طيبات ؛ ومن ثم ابتنى الخلفاء القصور وحشدوا

لتشييدها الصناع من شتى الأجناس ، ووفروا بها آنق أسباب الدعة والمتعة ، وحشروا فيها الغلمان والقيان ، وبالغوا فى إعداد الموائد والأسمطة ، وأكثروا من الألوان والصحاف ، واستمتعوا بالغناء والشراب ، ورفلوا فى فاخر الثياب ، واحتفوا بالمواسم والأعياد والمهرجانات ، وأسرفوا فى أعراسهم حتى ضربت ببعضها الأمثال ، ولم يدعوا متعة من متعات النفس أو لذة من لذات الجسم إلا استاموها

واحتذاهم فى ذلك الأمراء والكبراء وكل من أطاقه من عامة الشعب ، فانتشرت مجالس الشراب والغناء ، وأحكمت أوضاعها وارتقت آدابها ، وراجت صناعة المغنين وحذقوا فنهم وجودوه ، وراجت تجارة الرقيق ونفقت سوق الجوارى ، وأُخذْن بالتثقيف والتهذيب ليجمعن فتنة اللب إلى فتنة النظر ، وأولع الناس بالرقة والظرف والكياسة ، ونفروا من الخشونة وتندروا بالجلافة والغفلة ، واحتفوا بالمواسم يشخصون فيها إلى الرياض أو الأديرة فى أرباض المدن ، يتنادمون ويتغزلون

وأثر تلك الحياة المترفة جلى فى الأدب العربى ، بل لعله أكبر فارق يفرق أدب ما بعد الاسلام والحضارة عن أدب الجاهلية ، إذ أن الأدباء اهتموا بتصوير مظاهر ذلك الترف كلها ، بل كانوا من أشد الناس حرصاً على الانغماس فيه ، بل تجمعوا فى العواصم طلباً لأسبابه ، وكان منهم من صاحبوا الخلفاء والأمراء فى مجالس شرابهم وسماعهم وساعات تبذلهم واستمتاعهم ، وجلسوا إلى موائدهم وشاركوا فى محافلهم ومهرجاناتهم ، وكل ذلك ضمنوه مدائحهم لأولئك الحكام ؛ وكان شهودهم تلك المشاهد وما يحوكونه فيها من القصائد ، من متممات السرور والأنس ، ومستلزمات الأبهة والعظمة

ومن ثم يحفل شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى وابن حمديس وكثيرين غيرهم بأوصاف القصور والحدائق والنافورات ، وسفائن النزهة وكلاب الصيد ، وألوان الطعام والفاكهة والأسمطة ، ومجالس الشراب وحذاق المغنين وحسان المغنيات ، والمحافل والمواكب ، كما امتلأ بالنسيب الذى كان أغلبه نسيباً بالجوارى دون الحرائر ، والذى امتزج بكثير من الخلاعة والفجور ؛ وروى الشعراء فى كل ذلك عن ممدوحيهم من الأمراء تارة ، وعن أنفسهم تارة أخرى ، وصوروا فى الحالتين حياة الترف المغرق التى طغى سيلها فى عهود العباسيين والفاطميين وخلفاء الأندلس وغيرهم

وقد ظفرت الخمر من بين أسباب الترف هاتيك بالمكانة الأولى فى النفوس ، وفازت بالحظ الأوفر من حفاوة الشعراء ، فكانت معقد السرور ومناط الأنس ورمز الصفاء ؛ وتفنن الشعراء فى تمجيدها ووصف تأثيرها ووصف مجلسها وساقيها وكأسها ، وطلبوا البراعة بالابتكار فى تلك الوجوه ، وخلعوا العذار واطرحوا التدين فى التوفر عليها والتغنى بها ، وهزئوا باختلاف الفقهاء فى تحليل بعض أنواعها وتحريم بعض ، وظفرت الخمر فى الأدب العربى بمنزلة لا تبارى فى أدب آخر ، وسما شأنها حتى زاحمت النسيب على مكانته الموروثة من عهد الجاهلية ، فأصبح وصف الخمر كالتشبيب والوقوف بالدمن وسيلة تقليدية من وسائل استهلال القصيد

ومن أجمل الشعر فى وصف أسباب الرفاهية تلك ، قول ابن الرومى الذى يختمه بتحسره على حرمانه مما يصف ، إذ أصبح التلهف على أسباب النعيم ديدن الشعراء ، وكانوا من قبل فى الطور السابق كما تقدم يتبرأون من الاستسلام للترفُّه والشهوات :

فى أمور وفى خمور وسَموُ ... رٍ وفى قاقُمٍ وفى سنجاب
فى حبير منمنم وعبير ... وصحانٍ فسيحة ورحاب
فى ميادين يخترقن بساتيـ ... ـن تمس الرؤوسَ بالأهداب
عندهم كل ما اشتهوه من الآ ... لات والأشربات والأشواب
والطروقات والمواكب والولـ ... ـدان مثل الشوادن الأسراب
والغوالى وعنبر الهند والمسـ ... ـك على الهام واللحى كالخضاب
لم أكن دون مالكى هذه الأشـ ... ـياء لو أنصفَ الزمان المحابى

وقد بلغ من ولع كثير من الشعراء باجتناء ثمار تلك الحياة المترفة الغارقة فى اللذات ، أن خصصوا أشعارهم لمدح الأمراء بغية أن يُقرَّبوا ويُمنحوا طرفا من ظل تلك النعمة السابغة ، ويشاركوا ممدوحيهم فى أبهتهم ولذاتهم ، وبغية النوال ينفقونه فى ارتياد مواطن اللهو التى حفلت بها العواصم ، ويبذرونه فى مجالس الشراب والغزل يعقدونها فى دورهم أو فى دور المغنين والنخاسين أو فى الحانات والأديرة ؛ ومن ثم امتلأ شعرهم بالمدح من جهة ، وبوصف الملاهى من جهة أخرى ، وراح بشار مثلا يفخر بكلا الأمرين : باقتناص أموال الملوك ، وانتهاب سوانح اللذات ، قال :

وإنى لنهَّاض اليدين إلى العلا ... قروعٌ لأبواب الهمام المتوج

وقال :

قد عشت بين الريحان والراح والمـ ـزهر فى ظل مجلس حسن

وبعد طور الثروة والترف هذا جاء الطور الثالث طور الفقر والانحلال ، حين استنزفت موارد البلاد ، وعظمت مفاسد الحكام ، وخمدت العزائم من جراء الانهماك فى ذلك الترف ، وفدحت الضرائب الأهلين ، وتنازع الأمراء والولاة . وقد كان جانب كبير من الشعب يشقى ويألم فى عهد الرخاء والترف السالف ؛ أما فى هذا العهد فعم الشقاء ، وانتشر الخراب ، وكسدت الصناعات ، وظهر القحط وتتابعت المجاعات

ولم يبق معتصما بربوة الترف فوق سيل هذا البؤس إلا القليل ومنهم الأمراء الذين يتنازعون الحكم ويرهقون الأهالى بالمغارم ليتشبثوا بمظاهر الملك والفخفخة ويتشبهوا بالسابقين فى الجاه والأبهة ؛ يسلبون الناس أرزاقهم باليمين ليمنوا عليهم باليسار بالأثواب والأطعمة فى المواسم والأعياد كأنما يأبون أن يطلبوا الرزق من وجوهه الشريفة ، ولا يريدونهم إلا عجزة مستجدين يفزعون إلى بر الأمير ويتمدحون بجوده . تلك كانت حال مصر مثلاً فى فترات طويلة من حكم الفاطميين والماليك ؛ وتلك كانت حال الأندلس على عهد بعض ملوك الطوائف الذين لم تكن الحرب بينهم تهدأ ، حتى لقد تشابه ثمت الأمراء ذوو الجيوش وقطاع الطرق أصحاب العصابات والمناسر . وقد أوجز بعض شعرائها وصف عبث الأمراء برفاهية البلاد فى قوله المفعم بالحسرة :

أطاعت أمير المؤمنين كتائبٌ تصرّفُ فى الأموال كيف تريد

فثالث الأطوار المشار اليها فى بدء هذه الكلمة هو طور العوز والبؤس الذى جاء رد فعل لطور الاسراف فى الترف ، كما يجيء الخمار عقب الاسراف فى الشراب . وفرق ما بينه وبين فقر الطور الأول أن الأول كان فقراً طبيعياً معتدلاً قضت به البادية على أبنائها وحصنتهم منه بالخلق المتين ؛ والأخير فقر منشؤه الافراط والتفريط ، وحليفهُ الذلة والمسكنة واللئيم من الطباع ، وفى طيه الشره والشهوة المكبوتة والتلدد والحرمان . وقد انعكس كل ذلك فى أدب هذا الطور إذ جاء ضاوياً سقيما مملوءاً بالشكوى والتوجع ، منطوياً على تمويهات المعانى ومخادعات الألفاظ التى تحكى ما كان يجيش به المجتمع من تمويه

هكذا جرى العرب من الترف إلى أبعد غاياته ، ثم كانت سقطتهم من بعد ذلك بعيدة المهوى . أما الانجليز فأنهم وإن شابهوا العرب ومن قبلهم الرومان فى تأسيس امبراطورية ضخمة ، كانوا نسيج وحدهم فى توقى اعراض الترف وتحاشى عقابيله التى يجرها على المجتمع ، والتى تحدث ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع بهدمها لصروح الدول ، لما تسلب أبناءها من صفات النخوة والجهاد والغلبة ؛ فلم يمسّ الترفُ المجتمع الانجليزى والأدب الانجليزى إلا مساً خفيفاً ، وفى عهود قصيرة ، وذلك للظروف التى أحاطت ببناء الامبراطورية

فقد شيدت الامبراطورية الانجليزية ببطء وتدرج ، لا بسرعة كما شيدت الامبراطورية الرومانية ، ولا فجاءة كما بنيت الامبراطورية العربية ، فلم يغمر المجتمع الانجليزى سيلٌ مفاجىء من الثروة ؛ وبنيت الامبراطورية فى العصور الحديثة فلم يتبع الانجليز الطريقة القديمة من انتهاب أموال العدو المهزوم وأسر المقاتلين أو المسالمين واسترقاقهم ؛ ولم يستأثر الملوك والقواد بغنائم الحرب وثمرات الفتح ، فتنحصر الثروة فى طبقة محدودة تسرف فى اللذات بينما بقية الشعب محروم ، بل كان الاقليم المفتوح حرباً يفتح للتجارة الانجليزية ورجال الأعمال الانجليز صغارهم وكبارهم ، فجاء توزيع الثروة بين طبقات الشعب أكثر تعادلاً مما كان فى المجتمع العربى

أضف إلى ذلك أن الانجليز لم يخالطوا الشعوب المفتتحة ولم يسمحوا لأبنائها أن يملأوا عليهم وطنهم الأول ولم ينتقلوا هم إليهم بحواضرهم كما فعل العرب ، ولم يأخذوا عنهم ضروب لهوهم وترفهم ولا غير ذلك من مظاهر الحياة ، لأنهم كانوا عادة يفتتحون أقاليم أقل منهم حضارة ، لا يستسيغون ما عندها من ضروب المتع ؛ وظل الانجليز فى بلادهم بعيدين عن تأثيرات أملاكهم ، متمسكين بتقاليدهم القومية وعوائدهم وأنظمتهم التى نمت وتوطدت قبل الالتفات إلى ما وراء البحار

هذا إلى أن الامبراطورية لم تشيد إلا وقد كسرت شوكة الملكية فى إنجلترا واستتب النظام الدستورى ؛ والملوك المستبدون هم عادة رادةُ الترف فى ممالكهم والموحون إلى رعاياهم باغتنام اللذات والملاهى ، يتوفر أوائلهم على تأسيس الدولة وتأثيل السلطان ، ثم يعكف أخلافهم على الترف والأبهة واتباع الشهوات ، ويقتدى بهم من هم دونهم . كذلك كانت الحال فى الدولة العربية حيث توطد سلطان الملك بامتداد أطراف الامبراطورية ؛ أما فى انجلترا حيث كف الملك عن أموال الدولة

أن يبذرها ، فقد ظل الملوك متبعين سياسة الاعتدال ، فلم يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من الطبقات

إنما فشا الترف والفساد فى المجتمع الانجليزى فى أواخر القرن السابع عشر حين عادت الملكية منتصرة من فرنسا مستعيدة بعض ما ضاع من نفوذها ، مصحوبة بالفرسان الانجليز الذين عاشوا زمناً فى المجتمع الفرنسى ، والفرسان الفرنسيين الذين شبوا فى بلاط لويس الرابع عشر ، فعج البلاط الانجليزى بمظاهر الترف وأسباب الغواية ، وفشا ذلك منه فى طبقات الشعب ، وساعد على ذلك تبرم الناس بما كان حكم المطهرين الغلاة قد فرضه عليهم قبل ذلك من كبح وتزمت ، وبدا أثر ذلك الترف والفساد الخلقى فى دراما ذلك العهد

وانتشر الترف كرة أخرى فى بعض القرن الثامن عشر بين طائفة ارباب الأعمال الذين أثلوا لأنفسهم ثروات ضخمة بشريف الوسائل وخسيسها فى الولايات الهندية قبل أن تشرف الحكومة الانجليزية على إدارتها ، وعادوا إلى أوطانهم مكاثرين بطارف أموالهم مستكثرين من مظاهر الأبهة والفخفخة ، وعرفوا بالنواب تشبيهاً لهم بأمراء الهنـد ؛ ورأى فيهم أدباء العصر مواضيع شائقة لكتاباتهم الساخرة ، وأولع بهم ما كنزى و كوبر وغيرهما طويلا ؛ على أنه فى كلتا هاتين الحالتين كانت النوبة عارضة قصيرة الأمد ضيقة الحيز ، صمد لها الخلق القوى ، والطبع الانجليزى الهادئ ، وتغلبت عليها تقاليد الأيام المتعاقبة وعاد الاعتدال شمار البلاط والمجتمع والأدب

فالأدب العربى قد حوى من آثار الترف الشيء الكثير ، بل حوى من ذلك ما لعل أدباً آخر لم يحوه ، وحفل بالرائع من الأوصاف لتلك الآثار ، وإن نبا بعضها أحياناً عن الذوق السليم والخلق الكريم . ولا ريب أن ميله هـذا إلى زخارف العيش وولعه بتصورها كان مما جنح به أخيراً إلى زخرف الألفاظ وأنيق المعانى . أما الأدب الانجليزى فظل رجاله غالباً بعيدين عن موائد الأمراء ، وظل الاعتـدال فى أغلب العصور رائده ، بعيـداً عن زخارف الحياة الترفة وزخارف الألفاظ المنمقة معاً ، وكان رجاله أشد شغفاً بتصوير دخائل النفس الانسانية ووصف محاسن المناظر الطبيعيـة منهم بوصف قصور الأمراء ومحافلهم ومواكبهم .

فخرى أبو السعود

من صديق إلى صديقين

للدكتور أحمد فريد رفاعي

مدير قلم المطبوعات

صدقني أيها الصديق ، الكبير في أدبه ، الكبير في خلقه ، الكبير في أثره ، أستاذنا الزيات ، أنني معجب بما تفضلتم بنشره في مجلتنا الشرقية المحبوبة « الرسالة » مما دبجته براعة الصديق الزميل ، البحاثة الدءوب ، الكاتب العالم الوديع ، الأديب عبد الوهاب عزام ، خاصاً بما لاحظه — مشكوراً مني ومن المستفيدين بنقده وعلمه ، مأجوراً من ربي وربه — على ما فات علينا جماعة « دار المأمون » أولا وقبل كل شيء ، ومن عاوننا في الطبع والاخراج من وراقين وطابعين آخراً

ومهما يكن من إيماني بصدق قول يحيى بن خالد : « لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يصنف كتابا » بيد أني ارتحت الارتياح كله إلى أن فاضلاً أديباً كالأخ الاستاذ عبد الوهاب عزام تجشم المتاعب والصعاب ، وأفنى الليل والصحة والجهد ، في القراءة والمقابلة ، والمطالعة والمقارنة ، والتصحيح والاستقراء ، في سبيل إقامة الأوَد ، وإحقاق الحق ؛ فله الحمد والثناء على ذلك ، ما أبلى وأجاد ، وبحث وأفاد . ولست بقائل له إنني ألحقت بالجزء الثالث ما يفيد ويرشد ، وفي الرابع ماينصف ويحمد . ولست بمتألم لما كان من مبادرته بما تداركناه ، لأن الكرم العلمي ، والسخاء الأدبي لا يعدوان صنيعه . بيد أني — وهو الأستاذ الحجة — ناقل له هنا كلمات متواضعة أرجح أن علمه الوفير سيسيغها ، وعطفه الفسيح سيسعها ، وأدبه الجم سيبررها

« وكم [1] كان يحلو لي أن أتحدث طويلاً عن النقد وحقيقته ، علماً وفناً ، وتاريخاً وتطوراً ، وما له من أثر عميق يمتد به في توجيه نهضتنا التجديدية إلى الانتاج والبقاء ، والتشييد وحسن الأداء ، والتقدم والنماء ؛ وكم كان يحلو لي أن أستفيض معك في القول في هذا الباب ، وأميط لك اللثام عما لنصفة النقدة من سداد تزجية ، وحكيم توجيه ، وحسن إبانة ، وفضل على الصناعة ، ومنن في عنق التأليف ، ورواج للكتب والتصنيف ، وإصابة للنصاحة ، وإعانة على الفصاحة ؛ وكم كان يحلو لي أن أزاملك في جولة في تلخيص كتاب « سالسبوري » في علم النقد ، وأن أرافقك في سياحة في أسفار « ما كولي » وما كان له من إرشاد إلى الحقائق ، في شكر للناشر ، وثناء على المؤلف ، في غير افتئات ولا إعنات ، وفي نأي عن الحقد والشحناء ، والجدل والمراء ، والاقذاع والهجاء . كم كان يحلو لي ذلك كله وما في سلكه ونظامه ، لو لا أن النية منصرفة ، إذا مد الله في سني العمر ، وأطال في حبل الحياة ، إلى أن أفرد لك كتاباً في هذا ، وأن أشرح لك فيه ماله صلات بالأدب والعالم ، وأعرج لك فيه على مضار الخصومات والاتهام بالزندقة ، والتشكيك في العقيدة ، لأن العلم يجب أن يكون للحق خالصاً ، والأدب يجب أن يُخلق للفن محضاً ، والفن يجب أن يتجه للجمال صرفا ، والجمال يجب تحليته لرفاهة الحس ، ومتعة العين ، وصقل الذوق ، مستساغاً حلواً »

« وهذه فصول لعمرك تتطلب الدرس والتقرّي ، والفرْي والتقصي ؛ ولكن قصارى ما نثبته لك هنا ، التوجه إليك بالنصيحة ، أن تجعل الدين السمح بينك وبين ربك ، وأن تتخذ من هديه تهذيب نفسك ، وتقويم عوجك ، وتغذية روحك ، وأن تتنكب ما في وسعك لها مزالق الفتن ، واغترارات التردي ، ومجاهل التدسي في الخصومات التي تقوم بين العلم والدين ، وبين القديم والحديث ، وبين الحق والأضلولة ، وبين الموعظة والأحبولة ، وبين الوجدان والسخيمة ، وبين السليمة والسقيمة ، وبين الصدق والمين ، وبين القصد والسرف ، وبين الافتيات والارشاد ، وبين الأعوجاج والسداد ، وبين الحلكة والنور ، وبين الافادة والغرور ، وبين الرقة واللطف ، والشدة والعنف ، وبين التعليم والتجريح ، وبين الابهام والتوضيح ، وبين الملتوى والصحيح ، وبين اللفظ والمبنى ، وبين العبارة والمعنى ، وبين الاجحاف والانصاف ، وبين الاصلاح والاتلاف ، وبين المعدلة والتحيف ، وبين الافادة والتعسف ، وبين الاجادة والتحرف ، وبين العقل والشهوة ، وبين الزبد والرغوة ، وبين الهدى والتدني ، وبين الجني والتجني ، وبين

(١) ص ٢١١ بكتاب التعليق من مكتبة القراءة والثقافة الأدبية للجيب

الشفاء والتشفى ، وبين الورع والغاية ، وبين البداية والنهاية . »

* * *

« ولكن ذلك كله لا يحول بيننا وبين أن نجتزىء لك القول ، بأن النقد هو المرشد البرىء ، والمعلم المؤدب ، والظهير المعين ، الذى يقدر متاعبك فى التأليف ، ويشيد بأوجه إحسانك ، ويجلى لك مواطن الضعف ، فى أدب ولباقة ، مع تحليل الموضوع ، شخصاً كان أو عصراً ، إلى ما له من عناصر ومقومات ، وأثر بيئة ووسط ، ووراثة ودم ، ومنبت ومنجم ، ومزاج نحيزة ، وطبيعة إقليم ، إلى ما يلابس عصرك من علوم وفنون ، وحقائق وبداية ، ونظريات وأسس ، ومدارس تفكير ، وقواعد جدل ، وأصول نقد ، ومعايير منطق ، ومقاييس مقارنة ، وأوجه موازنة ، وتناسب مقدمات ، واستخلاص نتائج ، وفهم لطريقة « ديكارت » ، وتعرف لمناهج « كولريدج » ، واستيعاب لتاريخ « سالسبورى » ، وانتهال من مقولات « ما كولى » ، ووقفة على أطلال مذهب « بوالو » ، فى استشراف إلى ناحية الجمال والخير من كل شىء ، ودرس للطبيعة المركبة فى كل شىء ، لذاتها لا لأشخاصها ، ووصف للصفات الانسانية العامة ، والفضائل البشرية العامة ، والطبائع الاجتماعية العامة ، كمدرسة القرن التاسع عشر التى كان فى طليعة كتابها « كورنى » « وموليير » و« راسين » وأترابهم وأشباههم ، وانتقال إلى أصحاب المذهب الايجابى ، وهم « أوجست كنت » و « أرنست رينان » ورائدهم « تين » الذين يتوخون البرهنة العلمية فى كل شىء ، ويرجعون مقومات الرجل إلى الجنس والبيئة والطبيعة والزمن وما إلى ذلك ، مع إلمامنا بمذهب « فرديناند برونتير » ، فى التدرج والانتقال ، المبنى على فلسفة « دارون » فى النشوء والارتقاء ، من تقسيم الآداب العامة ، من وجدانية واجتماعية ، وشعرية ونثرية ، إلى وحدات وفصائل ، مما ليس هذا موضع الاسهاب فيه ، والشرح له ، مع أخذنا بأساليب العرب ، وتذوق لمعنى الجمال ، فى صفاء روح ، ومضاء عزيمة ، ونفس طُلَعة ، ورفاهة إحساس ، للموازنة والافادة ، واضطلاع بقدسية العلم ، وأمانة البحث ، وحرمة المنقول ، واستكناه لمدى الجدل المترفق الوئيد ، وتحرر من ربقة التمنت المتيد ، ونزول على سياسة التسهيل والتعبيد ، والتأسيس والتشييد ، وأن تكون الروح الحاكمة على سلطان النقد الحافزة الى الارتصاد له والتبسط فيه الأخذ بصفو المؤلف لا إهدار جهده ، والمضى فى الاعانة له لا التقحم لانتقاص أثره ، والتقدم إلى شد أزره ، لا التهانف بذكره ، وإجلال صنيعه ، فى ذوب نفسه ، واعتصار ذهنه ، وسهر ليله ، ومتاعب تحصيله ، ودءوب إكبابه ، ومضنى إمضائه ، وعناء كتابه ، بديلاً من سياسة السخرية والتكذيب ، والهدم والتخريب ، واللوم والتثريب ، فى غير هذى ولا تعقيب »

* * *

أما بعد : فلست يا سيدى الجليل بمنتحل كتاب ياقوت ، إلى شخصى الضعيف ، لا سيما وقد أفردت لتاريخه ربع الجزء الأول . وأود أن تعلم يا سيدى ، غير معلم ، فى غير غمز ولا لمز ، ولا تعليق ولا تعقيب ، أن حكمة إصدارنا لما نحاول إصداره من مؤلفات السلف الصالح ، « من[1] رسمية وشبيهة بالرسمية ؛ فالرسمية ، ونعنى بها كتب الأدب المجمع عليها ، وهى البيان والتبيين ، والعقد الفريد ، والكامل ، والأمالى ؛ والشبيهة بالرسمية أمثال ابن منظور ، وابن قتيبة ، وابن بسام ، وابن ظفر ، وأبى حيان ، والزمخشرى ، والجاحظ فى حيوانه ، وما إليها ، وكتب الطبقات والتراجم ، أمثال معجم الأدباء لياقوت ، وتاريخ الاسلام للذهبى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومن على شاكلتهم — أود أن تعلم يا سيدى أن حكمة إصدارنا لهذه المؤلفات هو أنا نرى فى إحياء هذه الكتب ، وبعثها إلى النشور والظهور ، اللبنة الأولى فى بناء صرح الموسوعة العربية ، التى يحتاج إليها الناطقون بالضاد ، والتمهيد الذى لا محيص عنه ، إذا ما رغبنا رغبة عملية حقة فى الاتجاه العلمى والعملى معا ، فى وضع دائرة معارف عربية شرقية ، مستندة على أصول تاريخية صحيحة ، وقائمة على أسس عملية حقة »

* * *

ثم أود أن تعلم يا سيدى الصديق الكريم أن وزارة معارفنا قد أحسنت صنعاً وأصلحت أمراً ، حينما أخذت على عاتقها إنشارَ الأدب ، وإحياء لغة العرب ، وبعث تواليف السلف الصالح ، والأخذ بناصرنا فى إصدار أمهات كتبنا الأدبية ، ومظاننا التاريخية ، ومراجعنا اللغوية . ولتعلم — غفر الله لى

(١) ص ١٢ كتاب التعليق

ولك — أيها قررت أن تفتح الباب على مصراعيه لكل أديب عالم، أو أستاذ مثقف، أو ناشر همام، يتقدم لها برغبته فى المعونة برجالاتها وأعتها لمراجعة ما يصدر، والاشراف على ما يطبع، رغبة فى خدمة الثقافة، وحرصاً على الأمانة العلمية المرجوة. ثم أود أن تعلم يا سيدى أن تسعة أعشار ما يطبع الآن، وما يروج فى السوق، ليس من آثارك النافعة، ولا من منتجات من هم فى مكانتك وثقافتك، بل هو مع الأسف الشديد من الروايات المبتذلة، وقصص البوليسيات والاجراميات، وأن المصلحة كل المصلحة فى محاولتنا جميعاً تغيير الاتجاه، وخلق الذوق الأدبى الجديد

ثم أود أن تعلم — غير معلم طبعاً — أيها الأستاذ الجليل أن ضبط الأعلام، ومراجعة الأعلام، وشرح المبهم، والتذييل على ما فات المؤلف والناشر — كل هذا ليس بالسهل الميسور، ولا بالعمل الضئيل، الخليق بالسخرية والتهانف. وحاشاك أن تجنح — وأنت المؤدب خلقاً ولفظاً، ومعنى ومبنى — إلى مالم يمهد فيك طوال حياتك. وأود أن تعلم أيها الصديق الأديب أننا كلنا، فى أعمالنا الأدبية والثقافية والعلمية، لم ندرج بعد من مهدنا، وأننا فى بداية البداية، وأن لغتنا العربية بحاجة إلى الضبط الكامل، والشكل الكامل، والأيد الكامل، والتآزر الكامل، وأننى أومن بحاجتى إلى توالى نصحك، ومطرد إرشادك، ومتتابع تعقيبك، ومحتاج حقاً إلى علمك وأدبك.

وأود أن تعلم يا سيدى أنك ستأسف كثيراً — وأنا العليم برجاحة عقلك، وسجاحة خلقك، ومتانة مباءتك، ودماثة سجاياك — حينما ترجع إلى الجزءين الثالث والرابع، وترى فيهما أن حضرة أستاذنا سوياً الشيخ عبد الخالق عمر، أستاذ اللغة العربية الأول بدار العلوم لم يأل جهداً فى إصلاح الكتاب وتدارك ما فات على الأستاذ المستشرق د. س. مرجليوث، فى غير موضع، يستحق التقدير والشكر، والثناء وحسن الأجر

وأود أن يعلم الصديق الكريم — فى غير منّ ولا تجمل، وفى غير زهو ولا اغترار — أننى ارتحت أيما ارتياح لتجنيبك مبطلاً، أو هديك مرشداً، أو تحيفك متعنتنا، أو إرشادك محقاً، فى ترجيح نبالة القصد، وحسن الطوية، على ما عداها علم الله. ارتحت أيما ارتياح — مهما كان الحافز والدافع، والحادى والهادى — لما كان، لأننى أسأت التصرف حقاً، ولأننى أخطأت محجة السبيل صدقاً، ولأنه لا معنى لأن يحتمل مثلى، ومن فى صحتى ومتاعبى، ومن خرج أمس القريب من محنة المعاش، وإضاقة الرزق، وتوالى النكبات والأرزاء — لا معنى لأن يحتمل مثلى مسئوليات كبار، مخيفة ومفزعة، فى التصدى لما تصدره الآن «دار المأمون»، التى تكلفنى هى والمراجع الشمسية ومنسوخاتها ومصادرها ما لا يقل عن مائة وخمسين جنيهاً شهرياً؛ لو علم الصديق الكريم النفس والخلق مصدرها وطريقة جمعها، لتردد فى أن يركب رأس الشيطان، ولتريث حتى يطلع على استدرا كاتنا، ولكان نعم المشجع والظهير، ونعم العون والنصير

وأود أن يعلم الصديق الكريم — غفر الله لنا سوياً، وهو هو المنبيل الخلق، الطاهر الذيل، العف الوجدان — أننا معشر الكتاب نعانى الأمرين من حسد الحاسدين، وظلم المبطلين، وشظايا الراجمين. ولو كان الصديق الكريم — رحمه الله، وهو المتصل بالدكتور طه حسين بك زعيم الأدب ونصيره، ومن خاصة الأستاذ أحمد أمين وهو عميد الأخلاقيين، ومن كتاب الرسالة ولها فى الأدب وبنائه رسالات خالدات ليس إلى انتقاصها من سبيل — لو كان الصديق الجليل أنعم النظر لآثر أن يترك منهجه الجديد فى تقدمته لنقده، لمن هو دونه بمراحل، خلقاً وعلماً، وثقافة وأدباً؛ ثم لوازن — بفرض عدم مطالعته لاستدرا كاتنا فى الجزءين الثالث والرابع — بين معجم ياقوت لمرجليوث ومعجم ياقوت لدار المأمون، ثم لم يبخل بالارشاد عن طريق الصحف إن كان محباً للاعلان، أو عن طريق الصداقة إن جنح إلى الاحسان، فى غير انتقاص لفضله ولا نكران

وأود أن يعلم الصديق الكريم — وأقول هذا من باب الاكبار وأنت خير أهله، ومن باب التقدير وأنت خير موضع له — أننى كنت أنتظر منك ومن زمرتك الصالحة الجليلة أن تكونوا أكثر عوناً لى من الأستاذ مرجليوث؛ فلقد كتب إلىّ — فيما بينى وبينه وبين ربى وربه — ليرشدنى إلى أن نسخة شمسية لقسم ناقص من الكتاب لدى المستشرق يهوذا، وأن آخر فى فلسطين لديه كذا، وأن نسخة مكتبة جلالة الشاه فيها كذا، وهو ليس بعربى، وإن كان للعربية محبا ولها

نصيراً ؛ وأنت يا سيدى — الكريم البيت ، الكريم الخلق ، الكريم الماضى والحاضر — تمسك بمعاول هدم ، ومقولات إقذاع ، وتمهيدات تهكم ! ويا ليتك أتيت بجديد ، بل يا ليتك لم يفتك ما استدركناه ! والله لا أحمل عليك لأنك شخص ، ولكنه الاكبار لشخصك ، والاكبار لمروءتك ، والاكبار لمصريتك ، والاكبار لنصفتك العلمية ، ومكانتك الأدبية

ثم أود أن تعلم أيها الصديق الكريم ، والزميل القديم ، أننى — مع اكبارى لكل نقد ، ورضوخى لكل هدى ، وإذعانى لكل ارشاد ، وخضوعى لحجة الصواب — كنت أؤمل منك كثيراً ، وكنت أؤمل من (الرسالة) كثيراً ، وكنت أؤمل من علماء العربية كثيراً ، وكثيراً جداً ؛ وليس بعاب ولا نقيصة أن أفتح لكم قلبى جميعاً ، لأقول إن مشروع الأحياء أكثر مما أطيق ، وأكثر مما أحتمل ، وإنه بحاجة ماسة إلى عونكم الأدبى والمادى ؛ أما الأدبى فبتغير تلك السبيل الشائكة المقذعة المريرة ؛ لاسيما وأنتم أعلم منى ، وأدرى بطلاسم النساخ ومعميات الكتاب ، وأخطاء الأجيال ، ومجاهل اللغة ، وفيافى الأحاجى ؛ وأما المادى ، فبأن تتقدموا بالدعاية القوية الحارة المؤمنة ، بأن يساهم السراة والأغنياء فى أكبر عمل ثقافى أدبى ، يخدم لغة القرآن ، ويرفع سمعة مصر إلى السماكين ، ويحتفظ بزعامتها على الشرق وعلى الناطقين بالضاد

ثم أود أن يعلم سيدى الصديق الكريم — غير معلم طبعاً — أننى ممن لا يحفل كثيراً بمادحه أو ذامه ، وأن مرانى فى هذا الباب كون منى رجلاً لا يخشى إلا الله ، ولا يعمل إلا بوازع يخشى الله دون سواه ، وأن مدح اليوم قد يكون ذم الغد ، لأن معايير الأشياء تختلف بالبيئة ، والظرف ، والمكان ، والزمان . وما زلت أذكر ما تذكره جيداً من محاضرة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدى ، حينما حدثنا عن الصاحب بن عباد ، وما عزاه إليه صاحب الأمتاع ، فى معرض الذم والهجاء ، من ميله إلى أن يقال عنه[1] : « أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، — ولله دره — ما رأينا مثله ، مَن ابن عبد كان مضافاً إليه ؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولى ؟ ومن صريع الغوانى ؟ ومن أشجع السلمى ؟ إذا سلكا طريقهما ، قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الاسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى القراءات ، وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسطاطاليس فى المنطق ، وعلى الكندى فى الجدل ، وعلى ابن سيرين فى العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن أبى خالد فى الخط ، وعلى الجاحظ فى الحيوان ، وعلى سهل بن هرون فى الفقر ، وعلى يوحنا فى الطب ، وعلى ابن يزيد فى الفردوس ، وعلى عيسى بن كعب فى الرواية ، وعلى الواقدى فى الحفظ ، وعلى النجار فى البدل ، وعلى ابن ثوابة فى التقفية ، وعلى إلسرى السقطى فى الخطرات والوساوس ، وعلى مزيد فى النوادر ، وعلى أبى الحسن العروضى فى استخراج المعمى ، وعلى بنى برمك فى الجود ، وعلى ذى الرياستين فى التدبير ، وعلى سطيح فى الكهانة ، وعلى أبى الحياة خالد بن سنان فى دعواه . » وما عزاه إليه آخر فى معرض المديح والثناء ، فى باب مكارم الأخلاق[1] : « إنه استدعى يوماً شراباً من شراب السكر ، فجىء بقدح منه ، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم . فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ؟ قال : بأن تجربه على من أعطاكه . قال لا أستجيز ذلك ولا أستحله . قال فجربه على دجاجة . قال : إن التمثيل بالحيوان لا يجوز . وأمر بصب ما فى القدح ، وقال للغلام : انصرف عنى ، ولا تدخل دارى بعدها ، وأقر رزقه عليه . وقال : لا تدفع اليقين بالشك ؛ والعقوبة بقطع الرزق نذالة » . فلعلك ترى ما أراه من أن للكاتب الواحد أحزاباً لامتداحه ، وأخرى لاستهجانه والزراية عليه ؛ وأن وجهات النظر تختلف ، بل معايير الحقائق تتباين على قدر غلبة النسبية فيها . ولعلك ذاكر قصة العميان السبعة مع فيلهم الموصوف ؛ ولله فى خلقه شؤون

وأخيراً أود أن تعلم ياسيدى أننى شاكر لك حقا كل فضل فى إصلاح خطئنا فى المعجم وفيما أصدره ، لأننى أنشد الخدمة الحقة لوطنى ودينى ولغتى

والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته

أحمد فريد رفاعى

(١) ص ١٨٥ الجزء الثالث من معجم الأدباء

(١) ص ١٨٥ الجزء السادس من معجم الأدباء

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفائت

أرسلت حكومة الولايات المتحدة البكباشي ريد إلى جزيرة كوبا ليفحص سبب وباء الحمى الصفراء . وكانت الحرب الأسبانية انتهت فى كوبا . فأعلن البكباشى أن الحرب قائمة ضد عدو جديد هو الحمى الصفراء . وطلب متطوعين ليجرب فيهم عض البعوض ليعلم هل تنقل الحمى به . فتطوع لازار وهو صياد مكروب متدرب ، وتطوع كارول وكان جراحا مساعدا فى الجيش

— ٣ —

واستدعى رجال الحكم رِيدَ إلى واشنطن ليؤدى تقريره عن أعمال جرت فى الحرب الأسبانية . فلما جاءته الدعوة أصدر أوامره مفصلةً إلى كارول ولازار وأَجرَمُنْتِي . وكانت أوامر سرّية ، وكانت غاية فى التطرف والوحشية إذا أنت قرنتها بطبع ريد المعتدل الهادئ — أوامر إذنابية لا ترضاها الذمم ، وهى إلى جانب هذا خروج على النظام العسكرى ، فما كان لدى ريد إذن من رؤسائه فى الجيش باصدارها . ورحل ريد إلى واشنطن . وقام لازار وكارول يصدعان بأوامره فيركبان خطة غاية فى الجرأة لم يركبها قبلهما من صُياد المكروب أحد . أما لازار ، وقد كنتَ بالأمس تقرأ فى عينه معنى الفناء ووَجمة الموت ، فقد صرت اليوم تقرأ فيها معنى العزم والتلهف على البحث . وأما كارول فقد كان جندياً بطبعه فلم يأبه عمرَه بمجالس التأديب العسكرية ولم يحفل قط بالموت ، وقد كان فى المكروب صياداً طويل الحبل طويل الباع

بدأ لازار خطته . فحمل معه فى زجاجات تلك البعوضات التى فقّسها فخرجت من البيض تحمل على أظهرها أقلاما من فضة وأخذ يسير بها بين سرائر المرضى وقد اصفرّت وجوههم كورق الخريف ، واحمرت أعينهم بالدم القانى ، وهذَوا فى القول وحق عليهم الفناء . وفتح زجاجاته على جلود المرضى ، فأخذت البعوضات تمتص من دمائهم حتى إذا امتلأت سدّ الزجاجات عليها ، وحملها إلى منازل من الزجاج أُعدّت لهـا ، وأدخل فيها إلى البعوض أطباقا صغيرة من الماء ومن السكر . وفى هذه المنازل هضمت أُنثيات البعوض هذه غذاءها من الدم المحموم ، وطنّت قليلا ، ثم سكتت فى انتظار التجربة

وتذكر لازار ما قاله رِيدُ له : « يجب ألا تغفل عن حمى الملاريا ، فلعل بينها وبين هذه الحمى الصفراء شبهاً قريبا ، ففى حمى الملاريا لا يكون البعوض خطراً على الناس إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة ، فلعل الحال فى هذه مثله فى تلك »

ولكن أين الصبر من لازار ، وأين منه صبر أيام بَـلْهَ صبر الأسبوعين أو الثلاثة ! فجاء بسبعة متطوعين لا أدرى كيف جاء بهم ، ولا أدرى ما اسمهم ، لأن أسماءهم على ما أعلم أُسدِل عليها الستار عمداً ، لأن التجربة أُريدَ إجراؤها فى خفاء كالليل البهيم . وقام لازار على هؤلاء السبعة — ولعله أسكرهم أو لعله خدرهم — فأسقَى البعوضَ من دمائهم ، هـذا البعوض الذى استقى منذ أيام قلائل من دم مرضى أصبحوا فى هذه الساعة فى عداد الأموات

وا أسفاه للازار ! فقد جاءت النتيجة بغير ما ارتجى ، فظل السبعة الرجال على أصح حال ولم تأتهم الحمّى . فانكفأ على عقِبَيْه خاسراً نادماً

خسر لازار ، وبقى كارول لم يجرِّب بعدُ حظَّه . وكارول هو الرجل الذى قضى سنين عونَ ريد الأول ، وكان دخل الجيش أول ما دخل جندياً بسيطاً ، ثم صار أمباشيًّ وجاويشَ سنوات عديدة تعلم فيها الطاعة حتى صارت من جبلّته . وكان رئيسه ريد قال : « جربوا البعوض » . وكان رئيسه ريد ارتأى أن الشيخ المأفون فِنْلى لم يقل لغوا عندما اتهم البعوض . فلزم كارولَ أن يقول ما قال ريد وأن يرى ما ارتآه . أما رأيه هو فثانوىّ فى حكم الجيش ومألوفه . ألم يقل لهم البكباشى ريد عند رحيله « جربوا البعوض » !

فجاء كارول إلى لازار وهو فى يأسه يذكِّره ، قال : « ها أنذا بين يديك متأهب لما تريد » . وسأله أن يُخرج إليه أخطر بعوضة

لديه – بعوضة تكون عضّت لا مريضاً واحداً بل عدة من المرضى ، ومن مرضى فى أسواء حال من حمّاهم . وفى السابع والعشرين من أغسطس أخرج لازار بعوضة حسبها أخطر ما عنده ، فقد كانت شربت من دماء أربعة من مرضى الحمى الصفراء كان من بينهم اثنان فى أسوأ حال . وحطّت هذه البعوضة على ذراع كارول.

ونظر إليها الجندى كارول وهى تتحسس بمقراصها تتخير للقرص مكاناً من جلده . فما الذى دار فى خلده وهو يرقبها تنتفخ كالكرة مما تشرب من دمه ؟ لا أدرى ولا أحد يدرى ، ولكنى أحسبه يداور فى فكره حقيقة يعرفها كل أحد : « أنا الآن فى السادسة والأربعين ، وفى الحمى الصفراء كلما زادت السن قل الرجاء فى الشفاء » . وكان فى سنّه السادسة والأربعين ، وكانت له امرأة وخمسة أولاد ، ومع هذا فقد كتب فى هذا المساء إلى ريد يقول : « إذا كانت نظرية البعوض صائبة وجب أن يكون حظى من الداء وفيراً » . وفعلاً قد كان حظه منه وفيراً

فبعد يومين أحس بالتعب ورغب عن عيادة المرضى فى عنبرهم ، وبعد يومين آخرين أحسّ أنه مريض ، وخال أن عنده حمى الملاريا ، فنهض بنفسه على رجليه وذهب إلى معمله وفحص دمه تحت المجهر فلم يجد به مما خال أثراً . ولما خيّم الليل ضرب فى عينيه الدم ، واحمرّ وجهه واقتمّ ، وفى الصباح حمله لازار إلى عنبر الحمى الصفراء ، وبقى هناك أياماً طويلة وإلى جنبه الموت ... ومرّت به دقيقة أحس فيها كأن قلبه سكت فلم ينبض ... وتلك دقيقة أعقبته سوءاً ستعلمه بعد حين . وظل بعد شفائه بعد تلك الأيام التى قضاها مريضاً بالمستشفى أمجد أيامه . قال : « أنا أول رجل أصابته الحمى الصفراء فى أول تجربة من عضة بعوضة متعمّدة »

وعانى مثلَ حظ كارول جندىٌّ يدعى « س . ص » ، أسماه هذا الاسم هؤلاء البحّاث الذين خرجوا على القانون فتستّروا فى ظلام الكتمان ، وكان اسمه الحقيقى وليم دين William Dean ومسكنه جراند رابدز Grand Rapids بمتشجان Michigan [1] . فهذا عضّته أربع بعوضات وكارولُ فى أول مرضه ، إحداها هى التى عضّت كارول ، والثلاث الأخريات عضت ستة رجال فى درجة من المرض معتدلة وأربعةَ رجال كانوا فى أسوأ حالة من الحمى ورجلين ماتا بها . وحَظِى هذا الجندى بالشفاء كما حظى كارول

إذن فالتجارب جاءت بخير ما يُرجى . نعم لقد عضّ البعوض ثمانية رجال فلم يصبهم سوء ، ولكنه عض كارول وعض « س . ص » ونِعمّ الخنزيرين الغينيين كانا فى هذا التجريب فأصابتهما الحمى ، وكاد قلب كارول أن يقف ، وتماثل الاثنان للشفاء ؛ وكان كارول مغتبطاً يكتب إلى رئيسه ريد وينتظر اليوم الذى يعود فيه ليطلعه على سجل التجارب زاهياً فخورا

ولم يشكّ فى هذه التجارب أحدٌ إلا لازار ، فداخله فى هاتين الاصابتين شىء من الريبة ، لأنه كان مجرّباً متقناً دقيقاً حذِراً فى تجريبه ؛ وكان يرى أنه إذا قام بتجربة وجب عليه أن يتحكّم فى ظروفها ويضبطها غاية الضبط حتى لا يتسرب إليها الخطأ ، شأنَ البحّاثة القح . حدّث لازار نفسه قال : « ليس من الكرم التشكك فى أمر هاتين التجربتين بعد ما أبدى فيهما كارول و « س . ص » من التضحية والجرأة ما أبديا ، ولكن كلا الرجلين تعرض للاصابة قبل التجربة وذهبا حيث توجد الحمى مرة أو مرتين قبل أن يصابا بها فعلا ، فليست التجربة بالغة حدّ الكمال ، فمن يدرينى أن بعوضى لا غيره هو الذى أعطاهم الحمى»

تشكك لازار ، ولكن ما تشكّكُ جندى أول واجبه إطاعة الأمر ؟ وإذنْ فقد أخذ يجرى على عادته فيذهب عصر كل يوم إلى أسرّة المرضى فى تلك الحجرات ذات الرائحة الغريبة الضعيفة المعهودة ، وإذنْ فقد استمر يقلّب زجاجات اختباره بما فيها من البعوض على أذرع رجال حمر الوجوه محمومين ، ويجعل البعوض يمتص من دمائهم حتى يرتوى . وجاء اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، فكان يوماً على لازار مشؤوما ، إذ بينما هو يأذن للبعوض فى الزجاج أن يشرب من دم المرضى ، حطت من الجو على ظاهر كفه بعوضة تائهة ، فتركها تشرب من دمه وقال : « دعها تشرب فما أظنها من البعوض الذى يسىء » ، قال ذلك عن بعوضة تائهة طائرة طليقة فى عنبر به الرجال تموت !

كان هذا فى اليوم الثالث عشر من سبتمبر

---

(١) بالولايات المتحدة

ادوارد الثامن

بين عرشه وقلبه

للأستاذ محمود غنيم

أرأيت ذلك العاهل الشاب ، يتنازعه عاملا عرشه وقلبه ، يهيب به الأول : أن الجاه الجاه ، والسلطان السلطان ؛ ويهيب به الثانى : لا سلطان إلا سلطان الغرام ؛ وهو فيما بين هذا وذلك كريشة فى مهب الريح ، وقد أرهف العالم أذنيه ، ليسمع كلمته الفاصلة ، وكاد الفلك يكف عن دورانه ، لينصت إلى قراره الأخير ، حتى أطلقها من فيه كلمة كالقذيفة ، وسمع دويها فى الخافقين ، فكانت فصل الخطاب ؟

ألا فليشهد الفلك وليحدث التاريخ : أن عرش الأمبراطورية البريطانيــة الذى لا يهزه قصف المدافع ، ولا تزعزعه قوة الأساطيل ، قد هزه لحظ فاتر ، وزعزعه بنان مخضوب ! وهكذا تثبت الطبيعة البشرية أن المرأة هى المرأة فى كل زمان ومكان ، منذ أن أخرجت آدم من الجنة إلى أن زحزحت ادوارد الثامن عن عرشه

* * *

لقد شهد تاريخ القرون الوسطى حرباً شعواء دارت رحاها بين السلطتين الزمنية والروحية ، فليشهد التاريخ الحديث حرباً شعواء من نوع آخر بين السلطتين الزمنيــة والقلبية . فلئن كان العرش أخضع الفاتيكان يوماً لنفوذه ، فها نحن أولاء نرى العرش ينهزم أمام الحب ، ثم يقف بين يديه خاضعاً ذليــلاً ، يبايعه بالأمارة ، ويعترف له بالغلب . ولعمرى إن السلطة القلبية لهى أقوى السلطات الثلاث بأساً ، وأصعبها مراساً ، وأشدها عراماً ، وأنفــذها أحكاماً . ألم يضح الناس قديماً بالأديان على مذبح الحب والغرام ؟

فأن تسلمى نسلم وإن تتنصرى يخط رجال بين أعينهم صُلبا

* * *

هذه هى بريطانيا العظمى أولى دول العالم ، وهذا هو ادوارد الثامن الرجل الأول فى بريطانيا العظمى ، فأن شئت أن تشير إليه فقل : إن الانسانية جسم هــذا هامته ، أو هى رأس هو ذؤابته ، لو خلق إنسان من غير طين وماء لـكان إياه ، ولو استمر البشر على عبادة البشر لعبدوه من دون الله

ولـكن ، أليس عجيباً أن يكون هذا العاهل العظيم ، لا يملك من أمر نفســه ما أملـكه أنا من أمر نفسى ، وما يملكه عامة شعبه من أمور أنفسهم ؟ ! يشاء العامل البسيط أن يتزوج فيخطب فيمهر فتزف إليــه عرسُه ، ويشاء ادوارد الثامن أن يتزوج فتهز القوانين رأسها نفياً ، ويطل شبح التقاليد بأذنيه ، وتحول الحوائل ، وتعترض العقبات ، وتنطبق الزرقاء على الغبراء !

أليس عجيباً حقاً أن تتقيد حرية الملك فيما هو أمس الأشياء بشخصه إلى هذا الحد ، وأن الذى يقيد حرية الملك إلى هــذا الحد هو الدستور الذى يكفــل جميع الحريات ! الدستور الذى يحرر الأديان ، ما باله يقيد العواطف ؟ الدستور الذى يحرر اليد واللسان ، ما باله يحول بين المرء وقلبه ؟ ما باله يمنع الملك أن يتزوج زواجاً شرعياً ، يقره الأنجيل ، ويباركه يسوع ! ما هــذا الدستور الذى يبيح للرعيــة ما لا يبيح للراعى ، ويمنع الملك

و « فى مساء اليوم الثامن عشر من سبتمبر ... شكى الدكتور لازار سوء المزاج ، وجاءته رعدة فى الساعة الثامنة مساء » . هكذا ذكر سجل المستشفى

واستمر السجل يذكر فى إيجاز :

« ١٩ سبتمبر : الساعة ١٢ ظهراً ، الحرارة ٣٩,١° درجة . النبض ١١٢ . بالعين احتقان وبالوجه ارتشاح »

« الساعة السادســة مساء . الحرارة ٣٩,٩° درجة النبض ١٠٦ »

« ظهرت الصفراء فى اليوم الثالث . واستمرت حالة المريض فى التدرج إلى أن ظهرت عليه أعراض الحمى فكانت شديدة موئسة »

ثم يخرج السجل عن جفافه القاسى ويلطف من أسـلوبه قليلاً : « جاءت الوفاة زميلنا العزيز فمات مأسوفا عليه فى مساء الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٠٠ »

(يتبع) أحمد زكى

ما يمنح المملوك ، والذى يجلس الملوك على العروش آلات صماء تتحرك بالكهرباء ؛ لا تأمر ولكن تأتمر ، ولا تصدر الأحكام ولكن تتلقى الأحكام ؟ أهكذا تنقلب الأوضاع وتنعكس الحقائق فى القرن العشرين ؟

* * *

لقد كان خليقاً بهذه الأزمة أن تستحكم حلقاتها فى كل قرن إلا فى القرن العشرين ، وفى كل مكان إلا فى أوربا ؛ أوربا التى حملت لواء الديموقراطية وطافت تبشر بها فى أنحاء الكرة الأرضية ، ما بالها تنغمس اليوم فى الأرستقراطية إلى الآذان ، وتأبى الاعتراف « بمسز سمبسون » لأن الدم الملكى لا يجرى فى عروقها ؟! أكان يجرى الدم الملكى فى عروق نابليون يوم سمحت له أوربا أن يكون امبراطوراً يعبث بخريطتها كما يعبث الأولاد بالألواح ، ويصرف ملوكها كما تصرف قطع الشطرنج ؟ أحرام على « مسز سمبسون » أن تتبوأ عرش انجلترا ، كما تبوأت « جوزفين » عرش فرنسا من قبل ، ولا سيما فى هذا الزمان الذى أصبح فيه كل عامل فى منجم وزيراً ، وكل بائع صحف دكتاتوراً ؟

* * *

وماذا يفعل الملك ببنات الملوك إذا كان قلبه عند غيرهن ؟ وما ضر « مسز سمبسون » ألا تكون بنت ملك متوج ، أو أخت ملك متوج ، ما دامت هى ملكة متوجة على عرش الجمال ؟ ... وكيف لا تتبوأ مع قرينها عرش الحكم كما تبوأت عرش القلوب ، دولة بدولة ، وسلطان بسلطان ؟ فلماذا لا يقال : إنهما كفؤان ؟ هبوها ليست عذراء ، هبوها ذات زوجين من الأحياء ، أليست فاتنة حسناء ؟ إن الجمال يقتل كل غيرة ، ويغطى على كل اعتبار ، وهل نضيرها بكارتها الذاهبة ، ما دامت فتنتها باقية ، ووجهها لم يفقد نضرته ، وعينها لم تفقد سحرها . الحسناء عذراء وإن بدلت كل يوم بعلاً ، بكر وإن أعقبت كل يوم نسلاً ؛ ولن تزال بكراً عذراء حتى تفقد جاذبيتها ، ويحول نضرة خديها ، وتنطفئ الجذوة التى تشع من عينيها ؛ ألا رحم الله جاريتى الرشيد حين سحبت الأولى على الثانية ذيل التيه وقالت : أنا عذراء . فأجابت الأخرى ما بيننا إلا ليلة

* * *

ألا رحم الله زماناً كانت تثب فيه المرأة من أحضان عاشقيها إلى أريكة الحكم ؛ رحم الله عشيقات البلاط الفرنسى فى عهد أسرة البوربون — وما عهدهم ببعيد — حين كانت تقيد بأسمائهن التشريفات ، وتصدر بأسمائهن الأحكام ، وتعنوا أمامهن جباه أهل النفوذ والجاه ؛ كلمة إحداهن مرسوم ، وإيماءتها قانون ، وأمرها نافذ حتى على الملك نفسه ، وهى له خليلة لا حليلة

ألا رحم الله أيام العباسيين ، إذ كان يؤهل المرأة لمشاطرة الملك فراشه رشاقة فى قد ، أو أسالة فى خد ، أو رأى صائب تبديه ، أو بيت من الشعر فصيح ترويه ، فتصبح زوجا لخليفة ، وأما لخليفة ، كلاهما يتحكم فى الرقاب ، ويتحدى السحاب !

ألا رحم الله أيام الأندلسيين ، حين كان يقف الملك على شاطئ الغدير ، وينتقى زوجته من بين حملة الجرار ، فيغدق عليها من ألوان النعيم ما لا عهد لها به ، فتضيق بذلك كله ذرعا ، ثم يعاودها حنينها إلى حمل الجرار ، والانزلاق بها فى الأمطار ، فتخضب ردهة القصر بالحناء تخضيباً ، وتمطر سماؤه بدل الماء طيباً ، ثم تحمل جرتها وتسير فتنزلق قدمها ، فيسرى عنها ، وتقر عينها ، ثم لا تلبث أن تثور على الملك ثائرتها ، فتقسم ما رأت معه يوم صفاء ، حتى ولا يوم الحناء !

* * *

أليس من حق الملك الذى نهاره لشعبه ، أن يكون ليله لقلبه ؟ قاتل الله السياسة ، فأنها ما تركت شأناً من شؤون أصحابها ، إلا دست فيه أنفها ، لقد أحصت عليهم الحركات والسكنات ، فلا يتحرك أحدهم إلا بميقات . ولم تقنع بذلك ، بل تركتهم يمرضون حين تشاء لهم المرض ، ويشفون حين تسمح لهم بالشفاء ، ويأكلون على خوانها ، ويشربون من دنانها ، ويجوعون ويظمأون إذا ضنت عليهم بالطعام ، أو حبست عنهم المدام ؛ ثم لم تقنع بذلك ، فأرادت أن تعض على قلوب أصحابها بأنيابها ، فلا يميلون إلا وفق ميولها ، ولا يتزوجون إلا ممن تحوز شرف قبولها

* * *

لحا الله شعراء العرب ! لقد كان يأرق أحدهم ليلة فى سبيل الحب ، فيطول به الضجر ، من طول السهر ، ومناجاة القمر ؛ ولقد كان يذرف عاشقهم عبرة ، فيلونها بالحمرة ، ويشكو من تقرح جفنيه ، ويجعل الدمع حلقة عينيه ، ثم يعاف الماء القراح ، ويشرب الدمع بالأقداح ! كم أنشأ عاشقهم المعلقات الطوال ، فى

والأيثار ، وأنه ابتعد عن أهله ، وفارقهم من أجله

وحاربت أهلي في هواك وأنهم وإياى لولا حبك الماء والخمر

فياليت شعرى ، ماذا يقول ذلك العاشق الذى لم يسل الحب نومه من عينيه ، ولم يرق دمعة على وجنتيه ، وإنما أفقده عرشاً يمتد ظله على ربع الكرة الأرضية ؟

لاتباه امرأة بعد اليوم بما بذل فى صداقها من فضة ونضار ، ومنقول وعقار . إنهما امرأتان ، مهر كل منهما عرش وإيوان ! كليوباطره فى التاريخ القديم ، « ومسز سمبسون » فى هذا الزمان . فما أحرى كلا من ادوارد الثامن ومارك أنطوان أن يترنم بقول أمير الشعراء :

من يكن فى الحب ضحى بالكرى
أو بمسفوح من الدمع جرى
نحن قربنا له ملك الثرى

***

أعود فأقول : أيها الملك النازل عن عرشه ، هون عليك . لا أقول لك : ابك ملكا مضاعاً لم تحافظ عليه ، لقد كسبت امرأة ، ولم تخسر شيئاً ، فانعم بالاً ، وقر عيناً

ولعمرى إن أمبراطور الحبشة لأولى منك بالدمع مقلة . لقد كان أمبراطوراً طيلة حياته ، ولم تكنه فى يوم من أيام حياتك . وماذا تجديك أمبراطورية واسعة لا تحتكم فيها على موضع قدميك ؟ شتان بين من يحكم شعبه ومن لا يحكم قلبه ! فعزاء له عن ملكه الزائل ، وهنيئاً لك حريتك المستردة ، وقلبك الحر الطليق .

(كوم حماده) محمود غنيم

مدرس بالمدرسة الابتدائية الأميرية

٧ ـ هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

دوحة الجبل

وارتقى زارا ذات مساء الربوة المشرفة على مدينة (البقرة الملونة) فالتقى هنالك بفتى كان يلحظ فيما مضى صدوده عنه ؛ وكان هذا الفتى جالساً إلى جذع دوحة يرسل إلى الوادى نظرات ملؤها الأسى ، فتقدم زارا وطوق الدوحة بذراعيه وقال : — لو أننى أردت هز هذه الدوحة بيدى لما تمكنت . غير أن الريح الخفية عن أعيننا تهزها وتلويها كما تشاء . هكذا نحن تلوينا وتهزنا أياد لا ترى

فنهض الفتى مذعوراً وقال : هذا زارا يتكلم ! وقد كنت موجهاً أفكارى إليه

فقال زارا : ما يخيفك يا هذا ؟ أليس للانسان وللدوحة حال واحدة ؟ فكلما سما الانسان إلى الأعالى ، إلى مطالع النور ، تذهب أصوله غائرة فى أعماق الأرض ، فى الظلمات والمهاوى

فصاح الفتى : أجل ! إننا نغور فى الشرور ؛ ولكن كيف تسنى لك أن تكشف خفايا نفسى ؟

فابتسم زارا وقال : إن من النفوس من لا نتوصل إلى اكتشافها إلا باختراعها اختراعاً

وعاد الفتى يكرر قوله : أجل إننا نغور فى الشرور . قلت حقاً يا زارا ، لقد تلاشت ثقتى بنفسى منذ بدأت بالطموح إلى الارتقاء فحرمت أيضاً ثقة الناس ، فما هو السبب يا ترى ؟ إننى أتحول بسرعة فيدحض حاضرى ما مضى من أيامى . ولكم حلقتُ فوق المدارج أتخطاها وهى الآن لا تغتفر لى إهمالى . إننى عند ما أبلغ الذروة أرانى دائماً منفرداً وليس قربى من يكلمنى ، ويلفحنى القرّ فى وحدتى فترتجف عظامى ، وما أدرى ماذا أتيت أطلب فوق الذرى !

إن احتقارى يساير رغباتى فى نموّها ، فكلما ازددت ارتفاعاً زاد احتقارى للمرتفعين فلا أدرى ما هم فى الذرى يقصدون . ولكم أخجلنى سلوكى متعثراً على المرتقى ، ولكم هزأت بتهدج أنفاسى . إننى أكره المتنفضين للطيران . فما أتعب الوقوف على الذرى العالية !

ونظر زارا إلى الدوحة يتكئ الفتى عليها ساكتاً فقال : إن هذه الدوحة ترتفع منفردة على القمة وقد نمت وتعالت فوق الناس وفوق الحيوانات ، فاذا هى أرادت أن تتكلم الآن بعد بلوغها هذا العلو فلن يفهم أقوالها أحد . إنها انتظرت ولم تزل تتعلل بالصـــبر ، ولعلها وقد بلغت مسارح السحاب تتوقع انقضاض أول صاعقة عليها

فهتف الفتى متحمساً : نطقت بالحق ، يا زارا إننى اتجهت إلى الأعماق وأنا أطلب الاعتلاء ، وما أنت إلا الصاعقة التى توقعتها . تفرّس فى ، وانظر إلى ما آلت إليه حالتى منذ تجليت لنا ، فما أنا إلا ضحية الحسد الذى استولى على

وكانت الدموع تنهمر من مآقى الفتى وهو يتكلم ، فتأبط زرارا ذراعه وسار به على الطريق . وبعد أن قطعا مسافة منها قال زارا : — لقد تفطر قلبى ، إن فى عينيك ما يفصح بأكثر من بيانك عما تقتحم من الأخطار . إنك لما تتحرر يا أخى ، بل مازلت تسعى إلى الحرية ، وقد أصبحت فى بحثك عنها مرهف الحس كالساهر فى منامه

إنك تريد الصعود مطلقاً من كل قيد نحو الذرى ، فقد اشتاقت روحك إلى مسارح النجوم ، ولكن غرائزك السيئة نفسها تشتاق الحرية أيضاً

إن كلابك العقورة تطلب حريتها ، فهى تنبح مرحة فى سراديبها ، على حين أن عقلك يطمح إلى تحطيم أبواب سجونك كلها . وما أراك بالطليق الحر فأنت لم تزل سجيناً يتوق إلى حريته ، وأمثال هـذا السجين تتصف أرواحهم بالحزم غير أنها تصبح وا أسفاه مراوغة شريرة

على من حرّر عقله أن يتطهّر مما تبقّى فيه من عادة كبت العواطف والتلطخ بالأقذار ؛ لتصبح نظراته رائقةً صافية . إننى لا أجهل الخطر المحدق بك ، لذلك أستحلفك بحبى لك وأملى فيك ألا تطرح عنك ما فيك من حب ومن أمل

إنك لم تزل تشعر بالكرامة ولم يزل الناس يرونك كريماً بالرغم من كرههم لك وتوجيههم نظرات السوء إليك ، فاعلم أن الناس لا يبالون بالكرماء يمرون بهم على الطريق ، غير أن أهل الصلاح يهتّمون بهم ، فاذا ما صادفوا فى سبيلهم من يتشح الكرامة دعوه رجلاً صالحا ليتمكنوا من القبض عليه لاستعباده

إن الرجل الكريم يريد أن يبدع شيئاً جديدا وفضيلة جديدة ، على حين أن الرجل الصالح لا يحن إلاّ الى الأشياء القديمة ، وجل رغبته تتجه الى الأبقاء عليها

لا خطر على الرجل الكريم من أن ينقلب رجل صلاح ، بل كل الخطر عليه فى أن يصبح وقحاً هدّاما

لقد عرفت من الناس كراما دلّت طلائعهم على أنهم سيبلغون أسمى الأمانى ، فما لبثوا حتى هزأوا بكل أمنية سامية ، فعاشوا تسير الوقاحة أمامهم ، وتموت رغباتهم قبل أن تظهر ، فما أعلنوا فى صبيحتهم خطة إلا شهدوا فشلها فى المساء

قال هؤلاء النـاس : ما الفكرة إلا شهوة كغيرها من الشهوات

وهكذا طوت الفكرة فيهم جناحيها فتحطما ، وبقيت الفكرة تزحف زحفا وتدنس جميع ما تتصل به

لقد فكر هؤلاء الناس من قبل أن يصيروا أبطالاً ، فما تسنّى لهم الا أن يصبحوا متنعمين ، يحزنهم شبح البطولة ويلقى الخوف فى روعهم

أستحلفك بحبى لك وأملى فيك ألاّ تدفع عنك البطل الكامن فى نفسك اذ عليك ان تحقق أسمى أمانيك

هكذا تكلم زارا . . .

المنذرون بالموت :

ما أكثر المنذرين بالموت ! والعالم ملىءٌ بمن تجب دعوتهم الى الاعراض عن الحياة

إن الأرض مكتظة بالدخلاء وقد أفسدوا الحياة ، فما أجدرهم بأن تستهويهم الحياة الأبدية ليخرجوا من هذه الدنيا

لقد وُصف المنذرون بالموت بالرجال الصفر والسود ، ولسوف أصفهم أنا فينكشفون عن ألوان أخرى أيضاً

إنهم لأشد الناس خطراً ، إذ كمن الحيوان المفترس فيهم ، فغدوا ولا خيار لهم إلا بين حالتين ، حالة التحرق بالشهوة وحالة كبتها بالتعذيب . وما شهوتهم إلا التعذيب بعينه . إن هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الانسانية بعد ، فليبشروا بكره الحياة ، وليقلعوا عن مرابعها

هؤلاء هم المصابون بسلّ الروح ، فانهم لا يكادون يولدون للحياة حتى يبدأ موتهم ، وقد شاقتهم مبادئ الزهد والملال

يود هؤلاء الناس أن يُدرَجوا في عداد الأموات ، فعلينا أن نحبّذ إرادتهم ولنحترس من أن نعمل على بعث هؤلاء الأموات وعلى تشويه هذه النعوش المتحركة

إذا هم صادفوا مريضاً أو شيخاً أو جثة ميت ، فانهم يقولون — لقد انتفت الحياة ؛ ولو أنصفوا لقالوا إنهم هم نفيٌ للحياة ، وإن عيونهم دحضٌ لها لأنها لا تتجه إلا الى مظهر واحد من مظاهر الوجود

هم يتلفّعون برداء وسيع من الأسى ويتشوقون الى الحوادث التي تجر وراءها الموت . ولكنهم يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك فرقا . غير أنهم في الوقت نفسه يمدون أيديهم الى ما لذّ وطاب هازئين ، فكأن الحياة قشة يهزأون بها ولكنهم يحرصون عليها . إن حكمة هؤلاء الناس تهتف قائلة (الحياة جنون ، أفقطع منه التمسك بالحياة . وقد بلغ الجنون بنا هذا الحد الفظيع)

يقولون إن الحياة آلام ؛ فهم يقولون حقا ، فلماذا لا يضعون حداً لهذه الحياة إن لم يكن فيها سوى العذاب ؟ تلك تعاليم ترمي إلى وجوب الانتحار ؛ فيقول البعض وهو يدعو إلى الموت : إن الملاذ الجنسية خطيئة فيجب الامتناع عنها والاضراب عن التوليد . ويقول البعض الآخر : إن الولادة مؤلمة ، فعلامَ تلد النساء وهنّ لا يقذفن الى الوجود الا بالأشقياء ؟ وهذه الفئة هي أيضا من المنذرين بالفناء

وتقول لك فئة أخرى : إن الرحمة لازمة فخذ ما عندك ، بل خذ ما تتكون شخصيتنا منه ، فان فعلت فأنك تقطع من الأسلاك التي تشد بنا إلى الحياة . ولو أن رحمة هذه الفئة من الناس تتغلغل في صميم ذاتهم لكانوا يبذلون الجهد في سبيل دفع سواهم إلى كره الحياة . ليستمر هؤلاء الناس على ما هم عليه ، لأن رحمتهم الحقيقية كامنة في إيقاع الأذى

إن ما يقصد هؤلاء الناس إنما هو التملص من تكاليف البقاء فلا يهمهم أن هم ألقوا بأغلالهم على الآخرين .

وأنتم أيضاً ، أيها المتحملون من الدنيا همومها وجهودها المرهقة ، أفما تعبتم من الحياة ؟ أفما أنضجت المحن نفوسكم لتقوم هي أيضا منذرة بالموت ؟

أنتم يا من تحبون الأعمال الوحشية وكل حادث يمتعكم بكل جديد وغريب سريع الزوال ؛ لقد ضقتم ذرعا بأنفسكم فما تهالكون في العمل إلا تهربا من الحياة وطلبا للاستغراق لتصلوا بذاتكم إلى نسيان ذاتها . ولو كنتم أشد إيمانا بالحياة لما كنتم تستسلمون هذا الاستسلام الكامل لحاضركم . لقد خلت سرائركم من القوة اللازمة للانتظار ، بل خلت مما يستلزم كسلكم نفسه من جلد

ان صوت المنذرين بالموت يدوي في كل مكان ، والعالم مكتظ بمن وجبت دعوتهم الى الموت أو بالحرى إلى الحياة الأبدية ؛ ولا فرق عندي بين ذاك وهذه إذا كان هؤلاء الناس يسارعون إلى إخلاء الأرض

هكذا تكلم زارا

(يتبع) فليكس فارس

فى بهو فندق

خيانة اللغة العربية والآباء والأجداد والدهر والتاريخ

للأستاذ محمد بدر الدين الخطيب

أنا (ولا أنانية) والسائح العراقى الأستاذ يونس البحرى الساعة فى « صالون » فندق من أكبر فنادق بيروت ، نقلب الطرف والسمع فى الزمر التى تحتشد حولنا ، ونتداول شتى الحديث ونعود إلى «الرسالة» وافتتاحيتها المشرقة بما فى نفس كاتبها الأستاذ الزيات وبما فى نفوسنا نحن إخوانه من شعور صحيح يتصل بتيار الحمية ولا يتقطع ملحقا بسلك مذبذب ضعيف يتفرع إلينا من الغرب .

نحن فى حماس واشراق ، والزمر التى رأيت تلغط حولنا بالفرنسية ، وبالفرنسية فقط ، لغطاً ضعيفاً أشبه بالنور الضئيل فى المصباح الكهربائى الذى يستمد تياره من الفرع الضعيف الذى رأيت أيضاً

هذه فتاة ريانة يهفهف العطر والجمال والدلال فى خطوها ، تتحدث إلى أخرى بالفرنسية ، وازاءها أمها تتطلع إليهـا تطلع المأخوذ الذى لا يعى ما يقال .

ها هى ذى أمها تسائلها (بالعربية)

التفتت الفتاة فى نزق وقد التهب وجهها بالحمق ولسانها بالنزق وصاحت بأمها :

أى ! أى ! هس ! هس !

وعادت إلى الكلام بالفرنسية وفى نفسها أن أمها قد مسخت المدنية أو مسخت موقفها من المدنية والفرنسية فى حديثها إليها بالعربية .

لم أكتم نفسى وتركت الغضب يمد عليها ويجعلنى ألتفت إلى صاحبى (يونس) وأحدثه بما يشبه الصيحة عما أرى وأسمع .

وكان صاحبى مثلى فى وجوم وألم ممـا يرى فلم يكتم نفسه وانبعث يصيح ويعلن أسفه (بالثلث)

وكان بجوارنا زمرة من الشباب وقع عليها ما نقول وقع العجب فى غير رجب ، فالتفتت بجملتها وتوجه أحدها إلينا يقول :

(الناس أحرار يتكلمو ما شاءوا أفرنسية ولا عربية ولا ألمانية حتى شوهاد يا إخوان) .

قلت له شوهاد ؟ أى كلمة كبرت ، وأى حمية صغرت ، وأى ...

ليتك تذهب إلى تركيا وتتكلم بغير التركية ويحسبك الأتراك تركيا مارقا فترى وتسمع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من التأنيب والتعذير !

لا دواء لك ولا لأمثالك إلا أن تذهب إلى تركيا فى شكل تركى ، ولا أحسب المنطق يفيدك أو يفيد هذا الجمهور الغريب من أشباه الشباب وأشباه الرجال ، هذا الجمهور الخارج من حظيرة فنية استعمارية . . نعم . . .

وصاح صاحبى السائح العراقى يقول : لقد طفت أكثر بلاد العـالم فلم أجد أمة تحتقر نفسها وتلوى ألسنها وتتحمس لهذا العبث إلا فى بلادنا العربية

ما شأن اللغة العربية حتى تتجاوز عنها وترطن بالفرنسية ؟ أليست لغة المجد والعلم ، ولغة دمك وبلادك ؟

بهتت الزمرة ، وساد وجوم ، وتلجلج الجو ، لا يحير ، وماذا يحير ، وعناصره عربية ، وإن لم تكن عربية فطبيعية ، تشهد للأمر الواقع ، وتخشع احتراماً له وإجلالاً ؟

ساد صمت وعدنا إلى حديثنا ، ثم انفضت من حولنـا الزمرة ! وذهب أفرادها وفى نفوسهم ما لا يعلم إلا الله

وعدنا نقرأ مقال الأستاذ الزيات نفرج به ما اشتبك واحتبك من الشجون ، ونثنى على كاتبه ثناء خالصاً مشرقاً وثناء صحيحاً يجدر بالشعور الصحيح والرأى الصحيح

وتأملنا ولا زلنا نتأمل فى هذه الظاهرة السوء والعلة الغريبة التى نجد فى كثير من الذين داخلتهم حمية وحماسة ورعونة ولؤماً للدفاع عنها والسفاهة فى سبيلها

تأملنا ولا زلنا نتأمل ، وفى نفوسنا وأمانينا أن يبادر من يشمر بالخطر وبما وراء هذا الانحلال من نذر من الكتاب إلى معالجته بقوة وبصراحة

محمد بدر الدين الخطيب

في ساعة يأس

للشاعر القروي

هل بينكم من راحمٍ قاتلٍ ... يزحزح الأيامَ عن كاهلي
يقذفُ بي في دَرَكِ اللجِّ لا ... يلفظني موجٌ إلى ساحلِ
يا من يُذرّيني طحيناً على ... وجهِ صعيدٍ محرقٍ قاحل
ما رشّحت من جودِه قطرةٌ ... يوماً على نضرٍ ولا ذابل
أشفقُ أن أبعثَ في عُشبةٍ ... أو زهرةٍ أو غُصنٍ مائل
يا لَاشتهائي جنّةً من لظىً ... آكلُ من يانعها الآكل
في شجرٍ من لهبٍ ثائرٍ ... على ضفاف اللهبِ السائل
مأدبةٌ تأكلُ أضيافَها ... آمنةُ الوارشِ والواغلِ
وابرَدها عندي إذا أجحوحمت ... كأُختها في قفصي الناحلِ
لا قفةَ فُلكَ همومي معي ... ذاهبةٌ بالحِمل والحاملِ
من يشتري لي عَدَماً مطلقاً ... يُعيي على النافخ والجابل
لاشِ حياتي يا إلهي ولو ... حققتَ زعمَ الملحدِ الجاهل
جسمي وروحي وأغانيَّ لا ... تُبقِ على باقٍ ولا زائلِ
ما حيلةُ اليائسِ لا ينتهي ... من عاجلٍ إلا إلى آجلِ
أقسى من الموتِ على النفسِ أن ... تسعى إلى الموتِ بلا طائل
هَبْ كانَ لي الخلدُ تنغّصتُهُ ... بذكرِ هذا الألمِ الهائلِ

* * *

واحيرةَ العاقلِ في . . . ... قضى وأمضى بشقا العاقل
يفعل ما لو غيره فاعلٌ ... لقامت الدنيا على الفاعلِ
يا بائعاً «سَحبانَ» من «باقل» ... كبيعه شعبيه بالشاقلِ
القدسُ لم تزنِ فما بالها ... تُرجَمُ عن «بابلَ» من «بابلِ»
كم صرعةٍ للحق قد زعزعت ... رأييَ في الحقِّ وفي الباطلِ

* * *

مُت يا أخي العامل، مُت جائعاً ... ولا تسل عن أجرة العامل!
إن فاتكَ الخبزُ فلكْ آيةٌ ... وانعم بموت الآمن الآمل!
غداً لك الخلدُ فما ضرَّ إن ... لم تأكلِ اليومَ مع الآكلِ!
قبّلْ يدَ الظالمِ قسراً ولا ... تعتب على خالقه العادلِ!
هل كانت الآلام مذ قُدِّرت ... إلا نصيبَ الرجل الفاضلِ!
فلنحمدِ المولى على نعمةٍ ... خُصت بنا من فضله الشامل،
إبليسُ! يا مسكين! مُت غيرةً ... فالصَّلب.. حظ البشر الكاملِ!

* * *

يا سائلي عن سر هذا الأسى ... أقصرْ وقاك الله يا سائلي
ما أبعد الشكوى، على هولها ... عن بعض ما ينهش في داخلي
عن سرِّ أسرار عذابي الذي ... عزّ على السامع والقائلِ

* * *

يا مستعير الدمع لبيّك خذ ... ما شئت من طَلٍّ ومن وابلِ
في كل جفنٍ من جفوني سَمًا ... وكلُّ هدبٍ مقلتا ثاكل

(منبولو — البرازيل)

الشاعر القروي
من العصبة الأندلسية

ادوارد الثامن

للدكتور أحمد زكي أبو شادي

كأنكَ لم تبذل فؤادك داويا ... لشعبكَ حتى فاتكَ اليوم داميا
كأنكَ لم تدرِ البطولة يافعاً ... ولم تصحب الهيجا وتَسْلُ المغانيا
كأنك لم تُعطِ العظائم حقَّها ... ولم تعرفْ الأوطان حُبَّكَ فاديا

كأنك ما طاردت عن شعبك الأذى
وأنفقت في هذا الطراد اللياليا
مواهبُ يجني العُرفُ شرَّ جنايةٍ
عليها، ويَنْسى العُرفُ غيرك جانيا
وما قيمةُ التاجِ الذي أنتَ تاركٌ
إذا بات هذا التاجُ خصماً وعاديا؟
تفانيتَ في الإحسانِ للشعبِ دائماً
فلم يَزِنِ الإحسانَ أو كان ناسيا

وأذعنَ للتقليد في حين قد أبى ... نزولك عن عرشٍ زهابكَ ساميا
وهيهات أن يحظى بسحرك تاليا ... وهيهات أن يلقى شبيهك ثانيا
فكان مُهيناً كبرياءك، جارحاً ... وفاءك، مهما عدَّ للعرش وافيا

ومنْ قِدَمٍ كان التذبذبُ مِلّةً — وسوف على الدهماءِ يلبثُ عاتيا
أمثالكَ في إشفاقِهِ وإبائِهِ — يُسَخَّرُ ، مهمازُ خُرْفِ القيدِ حاليا
أتحرمُ محضَ العيشِ مثلَ بني الورى ؟ — إذنْ كلُّ عيشٍ دونه ليس غاليا
تُضحّي ؟ نعم ضحّيتَ أضعافَ ما رجَوْا — ولكنّهم ما بادلوكَ الأمانيا
وما كنتَ للحبِّ المقدّسِ خاضعا — ولكن لمعنًى بَذَّ عندي المعانيا
هو البرُّ بالنفسِ العظيمةِ عندما — ترى الناسَ فوضى والأماني مآسيا
ومثلُكَ لن يرضى الحياةَ مَنيّةً — ولكنّما يهوى الحياةَ معاليا :
معالِيَ منْ نُبلٍ وسعيٍ وخدمةٍ — وحريةٍ ، لا أن يرى العيشَ خاليا
وَهبْتَ الكثيرَ الفخمَ للشعبِ خالصا — ولكنّه يأبى لكَ النزْرَ صافيا
ومنْ عَجَبٍ يحنو عليكَ بلهفةٍ — فلم ترضَ إلا أن تكونَ المواسيا
وكنتَ عظيمَ النُّبلِ في كلِّ موقفٍ — كأنكَ يومَ الرَّوْعِ تشدو الأغانيا
فأفعمَ قلبي من ثباتِكَ نشوةً — ومنهُ لباكي الشعبِ صُغْتَ التعازيا
إذا أَسَرَ التقليدُ أحلامَ أمّةٍ — نظمتُ لها قبلَ العزاءِ المراثيا !

(الإسكندرية) أحمد زكي أبو شادي

الى الفيلسوف الشاعر نيتشه

بقلم محمد فهمي

نظمت على أثر قراءة ديوانه « هكذا قال زرادشت » الذي ترجمه « الرسالة »

أذبْتَ قلبكَ أشعاراً تردّدُها — أوْدَعْتَها لَذْعَ ما في القلبِ من نارِ (١)

(١) إشارة إلى قول نيتشه « إني لا أحب من الكتابات إلا ما يسطره الكاتب بدماء قلبه » فاذا لمس القارئ في هذه القصيدة شيئاً من الحيوية فما هو إلا قطرة من ذلك الكتاب بل البحر الزاخر الموار حيث تحس وأنت تطالعه كأنك في محيط متلاطم الأمواج

في كلِّ بيتٍ لسانُ النارِ مندلعٌ — في كلِّ بيتٍ تبدّى شبهُ إعصارِ
وأيُّ قلبٍ تراكَ اليومَ ساكبَه — وأيُّ فكرٍ تراءى لي بأسرارِ
ألا هو القلبُ دفّاقاً ومنطوياً — على البُطولةِ في سيّالها الجاري
ألا هو الفكرُ في أجوازه لُمَعٌ — من الخلودِ كضوءِ الفرقدِ الساري

***

تُلقى القذيفةُ من شعرٍ مؤجّجةً — نحو القلوبِ فتغدو كاللّظى الواري
وتبعثُ البأسَ فيها جِدَّ محتدمٍ — وتوقظُ العزمَ في إقدامِ جبّارِ
وتحطمُ القيدَ إذ حلقاتُه نسجت — من الخرافةِ في تأثيرها الزّاري
وتُطلقُ الروحَ كالطيرِ الذي فُتحت — له السجونُ وأقفاصٌ لأُسّارِ
يمضي يُحلّقُ نشواناً ومنطلقاً — ويهتكُ الحُجُبَ من غيبٍ وأستارِ
حتى يشارفَ سرَّ الكونِ مجتليا — غايَ الحياةِ لإنسانٍ به سارِ !

***

فما الحياةُ أراها اليومَ أُلهيةً — لفتنةِ النفسِ في كشفٍ وإضمارِ
وما الخلودُ أراه طيفَ أُمنيةٍ — تساورُ الفكرَ في حلٍّ وتسيارِ
ولا الوجودُ هباءٌ ليس يعدِلُه — في كفّةِ الزُّهدِ حتى عُشرُ مِعشارِ !
بل الحياةُ كفاحٌ لا قرارَ له — وليس يلحاه إلا كلُّ خوّارِ
بل الوجودُ هو الفردوسُ تحجبُه — عنا سخائفُ أوهامٍ وأوطارِ
وما الخلودُ سوى قُصوى بُلَهْنيةٍ — لكاملِ الخلقِ فوق الأرضِ قرّارِ (١)
أنت الذي جعل الآمالَ دانيةً — وأنزلَ الخُلدَ في الأخرى لذي الدارِ
وَحْيٌ من الفكرِ يهدي شهدَ حكمتِه — في كأسِ سِفرٍ تجلّى فوق أسفارِ . . .

(المنصورة) محمد فهمي

(١) صيغة مبالغة من « قر » إشارة لخلود الانسان الكامل أي (السوبرمان) على الأرض

من هنا ومن هناك

بوشكين أمير شعراء روسيا

تستعد روسيا السوفيتية استعداداً عظيماً للاحتفال بمرور مائة سنة على وفاة شاعرها الأكبر بوشكين الذى مات متأثراً بجروح بالغة بعد مبارزة جنونية مع هيكرين دانت أحد ضباط الحرس القيصرى الذى كان يغازل امرأة بوشكين ، والذى قيل إنه استطاع أن يحظى بها بعد مجازفات غرامية سافلة انتهت بمقتل شاعر روسيا الكبير فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧

ولو عاش بوشكين الى اليوم لأبى أن تحتفل به روسيا هذا الاحتفال الذى يؤلمه ويكبر عليه من رجال مستبدين غاشمين داسوا تعاليمه ، ولم يبالوا أن يجعلوا روسيا جحيماً لا يطاق من العسف والجبروت ، والفاقة والعوز ، والكبت والتنكيل . وهى أمور وقف بوشكين حياته على محاربتها فى عهد القيصر ، وانضم بسببها الى جماعة الديسمبريين يناضل الظلم بيده ولسانه وقلبه ، ولم يبال أن ينفى الى الجنوب ، وأن يحرم ملذات بطرسبرج وأنوارها التى كانت فى ذلك الوقت زينة الحياة الدنيا

وولد بوشكين فى ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ من أب روسى ، وأم خلاسية يجرى فى عروقها دم الزنوج الأفريقيين ، لأنها حفيدة (هينبال !) العظيم ، أحب خدم البلاط الى بطرس الأكبر ، والذى كان يلقبه عاهل روسيا (جوهرة بلاطى !) من سبيل الدعابة ، لأنه كان عبداً أسود امتاز بشجاعته النادرة وإخلاصه المتين لصاحب التاج

وكان أبوه روسياً مثقفاً يقتنى مكتبة حافلة تزخر بأجود الكتب الفرنسية كقصص فولتير ومؤلفات روسو وغيرها ، فكانت النبع الفياض الذى ارتوى منه بوشكين وشفى نفسه الصادية ، وساعدته ذاكرته القوية على استظهار ما فى كتبها من درر وغرر ومُلح وطُرف ، وهو لم يعد بعد طور الصبى . ولم يظهر بوشكين عبقرية ما فى صغره ؛ وكان يكره اللغة الروسية من صميمه ، ولم يكن يعلم أنه سيصير عما قريب إمامها المجلى ، وفارسها المغوار ، وشاعرها الذى لا يدانيه شاعر

وكان أبوه يضيق بضعف ولده فى الروسية ، فلما ضبطه مرة مكباً على فولتير يكاد يلتهمه ، لم يسعه إلا أن يضربه ضرباً مبرحاً وحرم عليه دخول مكتبته حتى يتقن اللغة الروسية . . . « وعندها يا بنى يمكن أن يثمر فى قلبك ، وعلى لسانك ، هذا الأدب الفرنسى الجميل ! . . . » وقد صدق أبوه !!

وفى سنة ١٨١٢ التحق بصالة المحاضرات Lyceum فى قرية زارسكوسيلو ، إحدى ضواحى موسكو ، وهناك تعرف إلى الشاعر (درزهافن) فنفخ فيه من روحه وشجعه على قرض الشعر ، وكان يستملح منه هذه القصص المتعة التى كان ينظمها وينشدها أخواته الصغيرات . وحدث أن زار الشاعر الروسى الكبير (زهيكوفسكى) ضاحية زارسكو ، وسمع بوشكين فأعجب به وتنبأ له عن مستقبل باهر . وقد تأيدت تلك النبوءة عند ما نظم بوشكين قصيدته الطويلة (رسلان ولدميلا) سنة ١٨٢٠ فأرسل إليه الشاعر الروسى صورته وعليها هذه العبارة (إلى التلميذ : من أستاذه المغلوب على أمره !)

وقد اشتملت قصيدة رسلان على طائفة كبيرة من الفوكلور الروسى الذى كان يترفع عنه الشعر فى ذلك الوقت ، ورغم ذلك فقد كان للقصيدة رنة عظيمة فى روسيا ولهج بها كل لسان ؛ وكان الشاعر باتيوشكوف يصبو إلى إمارة الشعر الروسى ، فلما صدرت قصيدة بوشكين حقد على الشاعر الشاب « الذى سبق الشعراء إلى ما كانوا يصبون إليه ! »

رحل بوشكين إلى العاصمة الصاخبة بعد حصوله على شهادة الليسيوم ، وكان يتمنى لو التحق بالمدرسة الحربية ، بيد أنه ألحق بوظيفة فى السلك السياسى ، واستطاع أن يجوب آفاق القوقاز ، وهو فى ذلك العهد مسبح خيال الشعراء ونبع إلهامهم ؛ ثم

تجول فى ربوع القرم ، وقضى حقبة طويلة درس فيها الايطالية والانجليزية ، واشتد ولعه بشاعر الانجليز بيرون فكان يستظهر قصائده ، وبلغ من إعجابه به أن قلد بقصيدته (أسير القوقاز) قصيدة بيرون (تشيلد هارولد) . وفى هذه القصيدة يبدع بوشكين فى الكلام عن الحب ووصف الجمال القوقازى والخرائد القوقازيات ويرتفع ببطل القصيدة إلى ذروة الطهر

وشعر بوشكين فى هذه الفترة من عمره متأثر بالأدب العربى إلى حد بعيد ؛ وأثر أبى نواس والمدرسة العباسية فيه شديد الوضوح ، فهو يصف بيوت الحانات وما فيها من ألوان الترف وجمال السرارى والولدان . ومن يقرأ ما جاء فى الأغانى ونهاية الأرب عن حب الأعراب ثم يقرأ قصيدة (الغجر Gypoies) لبوشكين يلمس أثر الثقافة العربيـة فى هذا الشاعر لمساً تاما . فهـذا الفتى (أليكو) الذى يسأم صخب المدن ويفر إلى الريف فيحب الفتاة (زمفيرا) ويتزوجها ، ثم تمله الفتاة وتقلوه وتعلق فتى وسيم الخلق فتتصل به وتساقيـه كؤوس الغرام ويفاجئهما أليكو فى حالة مريبة فيقتلهما جميعا ، ويثير عليه غضب سيده وهو والد الفتاة ، فيطرده من خيامه ليهيم على وجهه فى الأرض ، ويعود السيد ليرى زوجته بين يدى عاشق أثيم فتسود الدنيا فى عينيه ويترك العاشقين وشأنهما وينطلق على وجهه فى الأرض حيران ... كأنما انتقم منه القضاء للفتى أليكو

وتأثر بوشكين بشكسبير أيضاً ، ويبدو ذلك الأثر على أتمه فى قصيدته (بوريس جودونوف) التى تصور رجلاً آفاقياً متشرداً يصل إلى عرش أمة فى غفلة الزمن ، وقد عرض فيها بديمترى الذى استطاع أن يحكم روسيا ولم يكن من قبل شيئاً مذكورا

ومن أحسن قصائده (أونجين) التى بدأ بنظمها سنة ١٨٢٣ وأتمها سنة ١٨٣١ وسنعود اليها فى عدد تال

مسز جراندى

اشتهر القرن التاسع عشر فى انجلترا بأنه قرن الانتقـال المفاجئ فى حياة أمة عظيمة عتيقة محافظة — ففيه ظهر داروين الذى قلب البيولوجية رأساً على عقب ؛ وفيـه تبدل الاجتماع الانجليزى فأصبح اجتماعاً صـناعيا يرتكز على أساس من الآلة البخارية بعد أن كان اجتماعاً زراعياً أو صناعياً يرتكز على أساس من آلة تدار باليد . وفيه خطا الطب خطوة واسعة من الشعوذة إلى التشريح العلمى وبحث خصائص المكروب

ولـكن القرن التاسـع عشر لم يستطع أن يخطو بالأسرة الانجليزية خطوة واحدة إلى الأمام ، بل إنه زاد الطين بلة فأغرق انجلترا فى بحر من الذهب فأترف الانجليز إترافا زادهم جموداً وقوى من سلطان مسز جراندى عليهم جميعاً

ومسز جراندى هذه هى هذا الشبح الخرافى الذى يكنى به فى انجلترا إلى اليوم عن سلطان التقاليد العتيقة البالية التى تعطى للأب فى منزله سلطة الدكتاتور ، وللأم سلطان القديسة ، تأمر وتنهى وترفع فى وجوه أبنائها عصا القرون الوسطى فتفل بها من حريتهم وتحد من استقلالهم إن فرض أن لهم استقلالا أو حرية . وكان صوت مسز جراندى يدوى فى كل بيت انجليزى فيقول : هذا واجب وذاك لا يصح ، وينبغى أن تدنى الفتاة عليها من جلابيبها ، وألا تفتح النافذة ، وألا تمد عينيها إلى أحد إذا سارت فى الطريق ، وألا تختار لنفسها بل أبوها هو الذى يختار لها

وكان لمسز جراندى سلطان مخيف على الأدباء ، وكانوا جميعاً يخشون بأسها ، ولذا كانت أفكارهم سـجينة فى زخارف من الكلام الأجوف الموشى الذى يعجب اللغويين ويهزأ به الأدباء المصاحون . وما كولى دليل على ذلك ، فأسـلوبه الرقص المطرب لا يكاد يدانيه أسلوب آخر فى موسيقاه ، ولـكنه بأفـكاره يعيش كما تعيش العناكب فى الأركان والزوايا ، وكما تسعى الخفافيش فى ظلام الليل . وجون رسكن كذلك ، وهو رجل أنيق العبارة رشيق الأسلوب ، ومع ذلك أراد أن يضحى تقدم انجلترا ورقيها الآلى ما دام هذا الرقى فى رأيه ينافى الفن الصحيح . ولقد ثار على مسز جراندى أديبان عظيمان هما لورد بيرون وبرسى شللى فـكان أولهما يجاهر بآرائه الـكفرية ، ويغيظها فيشرب الخمر فى جمجمة ميت ، ويترخص فى الحب وينظم دون جوان . وكان الثانى يحتقرها فى عظمة ووقار وينظم مأساة سنسى ويفلسف فى الحب ، ولـكن مسز جراندى هى الأخرى لم تأبه بهما ، بل هى قد لفظتهما من انجلترا إلى اليونان وإيطاليا ولذلك لم يشعر بهما أحد إلا بعد أن مرضت هذه السيدة المحتشمة وأوشكت أن تموت

والذى يهمنا من هذه الـكلمة عن مسز جراندى أن الشريعة الاسلامية أكبر أعدائها ، ومع ذلك فسلطان مسز جراندى فى مصر أقوى منه بكثير فى انجلترا ، فهل يتأذن الله أن تموت ؟ !

د . خ

البريد الأدبي

كتاب جديد لأندريه جيد

منذ بضعة أعوام ظهرت للكاتب الفرنسى الكبير أندريه جيد عدة مقالات رنانة تفيض بالمديح فى روسيا السوفيتية وفى نظمها وأحوالها ، وفيما هيأته للطبقات العاملة من حياة جديدة ، ولكن أندريه جيد يطلع الآن على قرائه بكتاب جديد عنوانه : « العودة من جمهوريات الاتحاد السوفيتى Retour de C. U. R. S. Z. » وفيه يحمل على روسيا السوفيتية بعنف وشدة ، وينعت ما سماه قبل بجنة العمال والطبقات العاملة بالجحيم المستعر ، ويقول لنا أندريه جيد فى سر هذا الانقلاب إنه كان يحب روسيا ونظمها الجديدة قبل أن يرى ويختبر بنفسه ما فيها ؛ ولكنه الآن وقد وقف بنفسه على الحقيقة ، وشاهدها فى موطنها ، وبعد أن أقام فى روسيا زهاء ثلاثة أعوام ، يستطيع الآن أن يقول فيها كلمة حق وصدق

يقول لنا أندريه جيد فى كتابه : « إن أقل احتجاج أو نقد يعاقب عليه فى روسيا السوفيتية بأشنع العقوبات ، ثم يخمد فى الحال ؛ وإنه يرتاب فى أن دولة أوربية أخرى — حتى ألمانيا الهتلرية ذاتها — يخمد فيها الرأى ويسحق ويذل مثل ما هو فى روسيا »

ثم يقول لنا أن الثقافة العالية وسفه الرعاع فى روسيا أمر سواء ، ولا يسمح لانسان أن يفكر بغير ما تفكر به جريدة (برافدا) لسان الحزب الشيوعى ؛ ويحظر على كل روسى أن يعبر الحدود ؛ وأن يعرف شيئاً عن العالم الخارجى ؛ والمهم دائماً هو أن يعتقد الشعب الروسى أنه أسعد حالاً من كل الشعوب الأخرى

ثم إنه فيما خلا الطبقة الممتازة التى تنعم بالحياة المترفة فى الطعام واللباس والمسكن ، ترى الشقاء يسحق كل الطبقات والجوع ؛ ويتكدس الناس فى مساكن ضيقة قذرة ويعيش معظمهم على الخبز الجاف والسمك ؛ وأما البضائع فهى مكدسة فى الحوانيت والمخازن ولكنها جميعاً من أردأ صنف ؛ والرداءة صفة عامة لكل شىء فى روسيا . وأما المبادئ الشيوعية فلم يبق منها إلا صورتها ؛ وتجد السياسة السوفيتية الحالية فى التدرج فى إحياء الأسرة والملكية الشخصية والميراث ، حتى يشعر الفرد أنه يملك شيئاً لنفسه يجب أن يدافع عنه ؛ بيد أن الفرد ليس له وجود ، وقد سحق كل ما فيه من مظاهر الاستقلال المادى والمعنوى

وقد أحدث ظهور كتاب أندريه جيد دهشة كبيرة فى جميع الدوائر لأنه كان معدوداً من أصدقاء روسيا الحميمين ، ومن أخلص محبيها ودعاتها

معرض للتاريخ السياسى

افتتح فى برلين أخيراً ، فى جناح من المكتبة الملكية البروسية ، معرض من نوع خاص عنوانه : « ألمانيا السياسية ، الطريق إلى مصير الشعب الألمانى » ، وقد عرضت فى هذا المعرض الجديد عدة وثائق تاريخية ، مما عرض من قبل فى مؤتمر نورمبرج ، مما يتعلق بتطورات الحزب الاشتراكى الألمانى ، وكفاحه فى سبيل الحكم ، وما قامت به الحكومة الجديدة فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من المشاريع والأعمال ؛ وفيه أيضاً وثائق ومخطوطات تاريخية ، لقادة ألمانيا فى العصر الحديث ، مثل إرنست مورتس آرنت ، وفردريك وليم الثالث ، والبارون فون شتاين ، وشارنهورست ، وأندرياس هوفر ، وكلها ترجع إلى العصر المسمى فى التاريخ الألمانى « بعصر التحرير » وهو فى أوائل القرن التاسع عشر

وقد أذيع عن المعرض والغاية التى أقيم لأجلها بيان جاء فيه إن هذا المعرض يوضح كيف أشرفت الامبراطورية الألمانية غير مرة على السقوط ، وأنها كانت تجتاز مثل هذه المرحلة حين قبض الحزب الاشتراكى الألمانى على زمام الحكم ، وأن الكفاح لانتشال ألمانيا من هذه الوهدة والعود بها الى مركزها القديم هو نقطة التحول فى تاريخ العصر الجديد ؛ وأن ألمانيا

تكتب الآن تاريخها مرة أخرى ، وأنها قد حققت مركزها القديم فى الأسرة الأوربية ، وستعمل على تبوء مركزها فى تاريخ العالم ؛ وأن الاشتراكية الوطنية التى تقود ألمانيا الآن الى مصايرها ، تقدر القوى الثقافية والكفاحية التى كانت لها فى الماضى حق قدرها ، ولذا ترى أن تبرز هذه القوى للجيل الجديد

قبيلة الكنتين

تلقينا من (نيالا) بمديرية دارفور بالسودان من مأمورها الفاضل عبد الماجد ابراهيم الكلمة الآتية :

السلام عليكم ورحمة الله ؛ وبعد : فتوجد قبيلة فى دارفور الآن تسمى الكنتين نزحت إلى دارفور من جهة مراكش وأن رجالها ملثمون ونساءها سافرات ؛ وفى أكثر حليهم وسيوفهم علامة الصليب ؛ وهم مسلمون ولغتهم أعجمية ؛ وهم يقولون إنهم عرب أو أصلهم عربى ، وينتمون فى نسبهم الى طارق بن زياد . ولكن بعض المؤرخين يقول إن الكنتين (بربر) من جهات مراكش ، وبعضهم يقول إنهم تتار . فأرجو أن تتفضلوا وتوضحوا لنا أصل هذه القبيلة إذا كانوا حقيقة من أصل عربى أو بربرى أو تترى ... الخ

وقد رأينا أن نذيع الاستفهام على صفحات (الرسالة) عسى أن يتقدم من الباحثين الذين توفروا على دراسة السودان وقبائله من يتفضل باجابة الكاتب عن سؤاله

مرثية جراى

نشرت الرسالة فى عددها ١٨٠ بتاريخ ١٤ / ١٢ / ٣٦ كلمة من نابلس عن مرثية جراى أبدى كاتبها فيها إعجابه بالنص العربى كما خطه يراع صديق الأستاذ على الطنطاوى وأنحى باللوم على الترجمة . ولما كان لهذا اللوم مساس بى فقد أحببت أن أقول كلمة فى الموضوع :

قال الكاتب ما نصه : « وعندى أن الأستاذ لو ترجم الرثية عن أصلها لبان له من روحه الفنانة وإخلاصه ما يجعل ترجمته فى دقتها تقف فى صف واحد مع ترجمة جرالد لرباعيات الخيامية المشهورة » . وأكبر ظنى أن الكاتب المحترم لم ينتبه الى كلمة (دقة) التى ذكرها وعلاقتها بالموضوع [١] فاذا كان يريد بالدقة المحافظة فى الترجمة على المعنى الحرفى للأصل فانى أعترف بأن ترجمتنا للمرثية لم تكن دقيقة ، لأننا لم نسع لذلك ألبتة ، بل كان هدفنا الوحيد جعل القارئ العربى يستمتع — على قدر الامكان — بجمال الفكرة التى أوحت الأصل ، وقد كان أسلوب الأستاذ الطنطاوى كفيلاً بذلك . ولا شك أن الكاتب يوافقنى إذا قلت بأن ترجمة فيتز جرالد (لا جرالد كما ذكر هو) لرباعيات الخيام لم تكن قط دقيقة بهذا المعنى . واذا كان فى شك من ذلك فليقارن مابين ترجمة فيتز جرالد المذكورة وترجمة الأستاذ الصافى النجفى . هذا وقد أجمع النقاد الانجليز على أن قصيدة فيتز جرالد ما كانت لتتبوأ مكانتها العظيمة فى الشعر الانجليزى لو راعى المترجم النص الأصلى (بدقة)

وأخيراً فان جاز لى أن أفهم رأى الكاتب فى الدقة بالترجمة من قصره لمعنى كلمة uncle على العم [١] وترجمته لكلمة Continent بقارة [٢] بدون أن يفكر فى معناها الخاص ، أو من ترجمته لمقدمة ولبول التى اعترف بانى لم أفهمها الا بعد الرجوع للنص الأصلى — نعم ان كان هذا مراده من الدقة فى الترجمة فانى مغتبط بأن ترجمتنا لم تكن دقيقة ولله الحمد

(بغداد) على حيدر الركابى

(١) وليراجع الكاتب مقدمة الدكتور منصور فهمى لكتاب الأستاذ الزيات (رفائيل) حيث يجد درساً مفيداً فى الترجمة ، ثم ليقرأ الكتاب نفسه ليتلق درساً فيها أيضا

(١) قال الكاتب إن عم (كذا) جراى كان مساعد أستاذ فى إيتون والصحيح أنه خال جراى ويدعى المستر انتروبوس . وغنى عن البيان أن كلمة uncle تطلق على العم أو الخال ولا تخصص إلا بالقرينة

(٢) من المعروف أن لكلمة continent باللغة الانجليزية معنى خاصاً وهو القارة الأوربية غير معناها العام وهو قارة . وقد كانت رحلة جراى التى أشار إليها الكاتب فى أوربا

النقد

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء – الجزء الأول

للدكتور عبد الوهاب عزام

وعدت القارئ في المقال السابق أن أعرض عليه بعض ما أخذته على تعليق الناشرين في القسم الأول من المعجم

والمآخذ هنا أنواع: منها شرح كلمات بيّنة لا يجهلها أحد ممن يقرأون معجم الأدباء، ومنها غلط في الشرح، ومنها فضول بذكر ما لا يحتاج إليه البيان ولا ينتظره القارئ، ومنها نوع آخر لا أدري ماذا أسمّيه إلا أن أسميه الشرح المضحك. وسأجتزئ بمثل من هذه الأنواع دون استقصاء:

(ا) فمن الأول الأمثلة الآتية:

ص ٥٢ درى الشيء وبالشيء دراية: وصل إلى علمه

ص ٥٢ حسب ما اقتضاه: قدر ما استلزمه. وهذا معنى يعثر عليه بالقرائن اه وأنا أسأل القارئ هل يحتاج إلى قرائن لمثل هذا التفسير؟

ص ٥٥ القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها، الغيّ: الضلال. العيّ: العجز عن الكلام

ص ٥٦ الفسحة: السعة

ص ١١٣ النصارى: أتباع يسوع المسيح، الواحد نصراني نسبة على غير قياس إلى الناصرة أو جمع نصران أو جمع نصرى الخ، فهل يرى القارئ أن ورود كلمة نصارى في المعجم تحوج إلى هذا التفسير؟ وهي لم ترد في سياق بحث في الدين أو في الاشتقاق، بل لأن بعض المترجمين أخواله نصارى

ص ١١٥ اقترض: استسلف. يقال استسلف منه دراهم وتسلف

ص ١٥٧ أجلّك: عظّمك

ص ٢٠٨ سما: علا

ومن العبث الضار أن الشارح ينقل أحياناً عن كتب أخرى ترجمة لبعض أدباء المعجم لا تزيد على ما رواه ياقوت، كما فعل في ترجمة إبراهيم بن العباس الصولي، وفي نقل ترجمة ياقوت نفسه عن شذرات الذهب بعد ترجمة وافية لا تعدو الثانية أن تكون نبذاً منها. ولو كانت التراجم التي ينقلها مفيدة فوائد ليست في المعجم ما جاز إثباتها ولوجب أن يكتفى ببيان موضعها ليرجع إليها من يشاء. وفي الجزء الثاني من هذا مثال عجيب جداً سيراه القارئ إن شاء الله

(ب) وأما الغلط فسأقتصر منه على ما لا يقبل التأويل والتخريج على الأوجه الضعيفة في اللغة والنحو حتى لا أفتح باباً للمناقشات الواهية

ص ٤٧ ذكر ياقوت كتاب المرزباني في النحو وقال: «إلا أنه حشاه بما رووه، وملأه بما وعوه، فينبغي أن يسمى مسند النحويين» وجاء في التعليق: «المسند من الحديث ما عزى ورفع إلى قائله» وهذا صواب، ولكنه لا يصلح تفسيراً لكلمة المتن. فالمسند هنا الكتاب الذي يجمع الأحاديث على ترتيب الرواة؛ وليس كل كتاب في الحديث يسمى مسنداً، فلا يقال مسند البخاري كما يقال مسند أحمد

ص ١٠٦ «وكانت كلماته حاملة إياي على هذا التصديع لمجلسه الرفيع» وهذه جملة من رسالة كاتب إلى بعض الرؤساء يقول فيها: إن ما بلغه من ثنائه عليه، حمله على كتابة الرسالة إليه. فالتصديع هنا كناية عن الكتابة التي تكلف المكتوب إليه مشقة القراءة. ولا تزال هذه العبارة جارية في بلاد العرب والفرس. يقول المتكلم لمن يخاطبه، أو الزائر لمن يزوره: صدّعناكم. أي سببنا لكم الصداع بكلامنا الخ. فقول الناشرين في الحاشية في تفسير الجملة السابقة: «صدعت إلى الشيء ملت إليه» خطأ

ص ١٠٨ في ترجمة أبان بن عثمان: «يعرف بالأحمر البجلي أبو عبد الله مولاهم» فسرت كلمة مولاهم بهذه العبارة: «من الشيعة» وهذا غلط، والمراد بها أنه مولى بجيلة. ومثل هذا شائع في التراجم. مثلاً يقال: محمد بن الحسن الشيباني مولاهم. أي مولى بني شيبان. الخ

ص ١١٠ «ابراهيم بن عبد الوهاب الابزاري الطبرى» وفي الحاشية: «نسبة إلى طبرية» والمعروف أن الطبرى نسبة إلى طبرستان، وأن طبرية يقال في النسبة إليها طبراني، ومنها

الحافظ أبو سليمان الطبرانى المحدث المعروف

ص ١١٠ بنو حمدان ممن استقلوا بالموصل ... وكان مقر ملكهم الموصل وأشهرهم سيف الدولة ... الخ . والمعروف أن سيف الدولة لم تكن له إمارة بالموصل بل فى حلب ، وأن أمارة الحمدانيين بالموصل ورثها ناصر الدولة وحده

ص ١١٧ استحلفني : أقسمت له يميناً بناء على طلبه . ويرى القارئ ما فى هذا التفسير

ص ١٢١ « ونهى النبى عن لبس السراويل المخرفجة » . وفى الحاشية : « خرفج الشيء أخذه أخذاً شديدا . وكأنه يريد أنها أخذت وهى تخاط أخذاً حتى ضاقت فصارت بحيث تصور أعضاء الجسم لضيقها . » وهذا تفسير بالنقيض . يقال عيش مخرفج أى واسع ، والسراويل المخرفجة الواسعة التى تسقط على ظهر القدم ؛ وبهذا فُسر الحديث

ص ٢٢٢ فى الحاشية : رماح خطية منسوبة إلى الخط : مكان فيه شجر تصنع منه الرماح . والصواب : أن الخط بلد فى البحرين تجلب إليه الرماح من الهند . قال فى اللسان : وليست الخط بمنبت الرماح ، ولكنها مرفأ السفن التى تحمل القنا من الهند »

(ح) وأما الفضول فى الشرح فمن شواهده :

ص ١٠٢ ذكر فى المتن الجواليق بمناسبة أبى منصور الجواليقى ، فقال الناشرون فى الحاشية : « الجوالق والجواليق وعاء من صوف أو شعر مندوف وهو الذى تقول عنه العامة شوال : قال الراجز .

يا حبذا ما فى الجواليق السود   من خشكنان وسويق مقنود

أى مختلط بالقند : وهو عسل قصب السكر ؛ يقال : سويق مقنود ومقند . »

فاذا أغضينا عن التسوية بين الجوالق والجواليق فى الشرح مع أن الأول مفرد والثانى جمع نجد الشارح أتى بالرجز لا شاهدا بصحة تفسيره ولكن لاشتماله على كلمة الجواليق ، ثم استطرد لتفسير القنود الخ

وص ١٠٥ الصنائع جمع صنيعة وهى الجميل والمعروف قال الشاعر :

إن الصنائع لا تكون صنيعة   حتى تصيب بها مكان المصنع

وفى الحديث صنائع المعروف تقى مصارع السوء

ص ١٥١ وأغرب من هذا ما جاء فى ترجمة ابراهيم بن سعدان ، فقد أبى الشارح إلا أن يشرح ، فلما قال ياقوت : « وكان لسعدان ابن المبارك النحوى ابن يسمى ابراهيم » كتب هو فى الحاشية : « سعدان علم منقول . والسعدان نبات من أحسن المرعى وأجوده يضرب به المثل ؛ فيقال فى الشيء يحسن ولا يبلغ فى الحسن درجة غيره : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان . »

وص ٢٣٨ « وهذا قول متمرد على الله مستغر بامهال الله »

وفى الحاشية : أغراه إمهال الله استدراجا له فتمرد وتمادى . وفى الحديث إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وقال تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين » ، « فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً »

وظاهر أن سوق الحديث والآية الأولى شرح للموضوع لا للفظ وهو فضول هنا . ومصدر هذا كله أن الشارح لا يسير على خطة ، فهو حيناً يستطرد بما لا حاجة إليه ، وحيناً يترك ما يحتاج إليه القارئ . بل أحسب أن للكتاب شراحاً مختلفين ليس بينهم اتفاق ؛ ولهذا أدلة فيما يأتى

وأما ما سميته الشرح المضحك فمن فكاهاته :

ص ١٣١ فى سياق الكتاب : « فجاء كتاب بعض بنى مارقة من الصراة » فأراد الشارح أن يعرف القارئ بنى مارقة فقال : « بنو مارقة قوم يسكنون الصراة » قلت : وفوق كل ذى علم عليم !

ص ١٦٥ فى الكلام على ابراهيم الصولى ويزيد بن المهلب : « حتى قتل يزيد يوم العقر » . وفى الحاشية : يوم العقر بفتح العين من أيام العرب ، قتل فيه يزيد بن المهلب » فهل زاد الشارح على ما فهمه القارئ من الكتاب ؟ على أن قتل يزيد كان فى أيام بنى أمية ، وأيام العرب تقال غالباً لأيام الجاهلية

ص ١٦٧ روى ياقوت أبياتاً أولها : ولكن الجواد أباهشام ، الخ ثم قال بعد الأبيات : « وهذا الشعر يدل على أن قبله غيره » فقال فى الحاشية فى تفسير كلمة « غيره » : أى من الشعر

ص ١٠١ هراة بفتح الهاء والراء بلد ، النسبة اليها هروى . وبلخ بفتح وسكون يصرف ويمنع من الصرف ، وإليها ينسب أبو معشر البلخى » . لم يبال الشارح أن يبين أين هراة وبلخ ، ولكن اهتم بأن يبين أن بلخا ممنوعة من الصرف أو مصروفة . ثم قوله فى هراة « بفتح الراء » لغو لأن ما قبل الألف لا يكون إلا مفتوحاً

هذا وموعدنا العدد الآتى لنبين بقية مآخذ الجزء الأول وبعض مآخذ الجزء الثانى . والله المستعان

عبد الوهاب عزام

نفح الطيب

فى طبعته الجديدة

بقلم الأستاذ أحمد يوسف نجاتى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

٣ — لم يقل الشارح الذى علّق على ما فى صفحة ٥٢ إن القدماء جميعاً لم يذكروا الأهرام إلا بصيغة التثنية ولكنه قال : إن شعراء الماضى يذكرون الهرمين ، وليس معنى هذا أنهم لا يذكرون الأهرام ، ولكن الغرض أن الكثير الشائع على ألسنة أغلب الشعراء ذكر الهرمين : هرمى خوفو وخفرع كما فى قول المتنبى ، وقول لسان الدين بن الخطيب وغيرهما ، وخطب هذا يسير أيضاً

٤ — قد يكون تفسير الرسيم فى صفحة ٦١ ناقصاً كما يقول حضرته ، بل كان خيراً لو بينت مرتبة هذا الرسيم من السير ، ولكن لو تتبع حضرته كل صفحات الجزء لوجد أنها مشروحة شرحاً شافياً فى غير هذا الموضع ؛ ودعوى أن أمثالها فى الكتاب كثير دعوى مجازفة لا ينهض عليها دليل ؛ بل إن بعض الكلمات اللغوية التى يوجز فى شرحها فى موضع يشبع القول فيها فى موضع آخر ؛ ولو فصل القول فى كل مرة للعبارة الواحدة — والكلمة قد تتكرر فى الكتاب نحو مائة مرة لكان هذا البيان (فضولاً) من القول يتحقق به وصف الناقد الأديب صانه الله

٥ — شكرنا لحضرة الكاتب أن أحسن ظنه بالشارح فى مثل هـذا التحريف الذى يدركه كل قارئ فى صفحة ٧٩ حتى أن نقطتى قاف (فشرقنا) فى ذيل ص ١٤ ظاهرتان جد الظهور

٦ — أضم صوتى الى حضرة الناقد الأديب فى أن شرح الأثير ص ٩٨ الشرح الأول خطأ لا يصح — ويعلم الله كيف سرى هذا التفسير إلى الكتاب فقد سها عن محوه مراجع النموذج الأخير وكان قد أثبته غيره ، وان كان حضرة الناقد إنما يوجه نقده الى ما فى الكتاب من تفسير خاطئ لبعض كلماته من حيث هو خاطئ . وليس بدافع اللوم عن هذا الخطأ تعدد الأيدى فى الشرح فهى متكاتفة على العمل متضامنة فيه ولكن الكرام يعفون عن نصف تفسير خاطئ لأكثر من ألف تفسير مصيب . وأما التفسير الثانى الذى أتى به الشارح لكلمة الأثير فالنظر الدقيق يؤيده ، والذوق السليم لا يبعده ، بل هو الذى رآه حضرة الناقد بعينه ، لا بل إن الشارح قد قال فيه أكثر مما قال ، وكان يحسن بحضرته أن يأتى بنص العبارة تاما ولا يختزلها . وما رآه حضرته من أن صحة العبارة : ومسحنا بالخطا منها أثراً وصفيحا لا نراه ، بل صحة العبارة كما هى فى الأصل (أثيراً) الموازنة (صفيحاً) فان أثر السيف ، أثره ، وأثيره ، فرنده ورونقه ، وكأن المقرى جعل الطريق سيفاً لاستطالته ودقته وصعوبة السير فيه وجعل خطاهم به وقطعهم إياه مسحا له

٧ — ليت شعرى ما الدليل على أن (الشارح) لم يطمئن (ص ١٣٩) لكلمة الرباع بالباء الموحدة ؟ ويا لله لمن يدرى خلجات النفوس أكثر من أصحابها ويعرف اطمئنان القلوب وقلقها وإن لم يشعر بذلك ذووها . ولو أن الشارح لم يطمئن لها لاستبدل بها فى الأصل غيرها كدأبه فى كثير من صفحات الكتاب مع تنبيهه إلى ذلك ، ولكنه أبقاه لارتياحه إليه واطمئنانه به ؛ ثم قال أيضاً فى أسفل الصفحة تعليقاً عليه (لعلها الرياع بالياء المثناة أى الريع والنماء والزيادة ، و (لعل) تفيد معنى ربما ، وقد يكون ، ولا يزال الشارح مصرا على ذلك الجواز فكلا المعنيين لا غبار عليه . أما المعنى الأول فيجذب إليه كلمة (البقاع) فان الرباع جمع ربع بمعنى الدار والمحلة والمنزل والوطن ، فهو بذلك التفسير مناسب للبقاع ؛ وقد يكون الربع بمعنى أهل المنزل مثل السكن ، وجماعة الناس ، ولست أحيل أن يكون (رباع) جمعاً لربع بهذا المعنى الذى يراه حضرة الناقد وإن كان الأنسب أن تكون بمعنى الأماكن معطوفة فى سجعة المقرى على كلمة البقاع . وأما الرأى الثانى وهو أن تكون الكلمة (الرياع) فيقتضيه كلمة الفضل المجاورة له ، ولا زلنا نصر على رأينا (أن اللغة تقول بملء فيها (الرياع) بمعنى النماء والزيادة ، ويقول أهل اللغة : راع الطعام وغيره رَيْعاً رُيوعا ورياعا ورَيَعانا إذا نما وزاد وزكا

٨ — قال حضرة الناقد وفى ص ١٥٢ قول القائل فى وصف دمشق :

... أو تكن فى السماء فهى عليها   قد (أمدّت) هواءها وهواها

فقال الشارح : لعلها أمرّت ! ؟ نقول ومعنى أمرت أذهبت ولا يصح المعنى على هذا (الحدس) الخ . ونحن نقول : إنا لا نزال عند رأينا فى جواز إرادة معنى أمرّت ، وإن اللغة تقول : أمرّ كذا بالشىء إذا جعله يمرّ به وينعطف عليه ، والمعنى الذى شرحه لكلمة (أمدت) فيه شىء من القلق لا يساعد عليه كثيراً تركيب البيت

٩ — اشتد حضرة الكاتب فى حملته على تعليقنا الذى رأينا جوازه فى معنى كلمة (الشمال) بصفحة ١٨١ عند قول الشاعر :

تمتع بالرقاد على (شمال)   فسوف يطول نومك باليمين

فقد قال الشارح (يجوز) أن تكون (شمال) جمع شملة وهى كساء يشتمل به ... ثم أتى بحديث على رضى الله عنه الخ فقال حضرة الناقد الأديب — بعد أن نقل العبار مقتضبة : (وهذا كله شرح فاسد) فان المراد بالشمال مقابل اليمين ، إذ المعنى : تمتع بالنوم على جنبك الشمال فى الحياة قبل أن يستمر نومك باليمين .

ولا زلنا مصرين جد الاصرار على أن هذا المعنى جائز — وان لم يكن متيقنا — بل ان سياق الحديث ربما رجح هذا المعنى . قال المقرى : ويحث على انتهاز فرصة اللقاء اذ هى غنيمة ، ويذكر بقول من قال — وأكف الدهر موقظة ومنيمة : تمتع بالرقاد على شمال الخ . فالشاعر يحض على انتهاز الفرصة وانتهاب المسرة ، ويحرض المرء أن يختلس غفلات الدهر اذا نامت عيونه عنه فيتمتع من يحب بالنوم على هذه الشمال التى تجمع الشمل وتلم الشتات يلتف المتحابان بها اذا لفهما الليل بشملته قبل أن يودع كلاهما بطن الثرى فلا يكون فراش وثير ولا مضجع ممهد ، وإنما يوسد فى القبر يمينه ، ويجعل عمله لا حبيبه قرينه . ومن لفظ (الشملة) اشتقت العرب معنى الشمل واجتماعه ، والجمع والتئامه

وإنا لنعجب جد العجب من وضع حضرة الكاتب علامتى التعجب والاستفهام بعد قولنا (وفى حديث على !؟) فليس فى العبارة ما يتعجب منه ولا فيها منكر يستفهم عنه . فما أحوج علامتيه هاتين إلى بضع علامات التعجب والاستفهام

قال الناقد الأديب فى شرح زجر الطير (وهذا فضول فى الشرح ومثله فى الكتاب كثير) وهاتان دعويان يصعب على حضرته تأييدهما ، فان ما يراه حضرة الناقد فضولاً قد يراه غيره لازماً ؛ والضعيف أمير الركب . وهل على الشارح من حرج أو ضير وهو يشرح بيتاً يقول : إذ زجرنا للوصل أيمن طير ، أن يبين أن زجر الطير كان عادة جاهلية أبطلها الاسلام (وإن لم يرد الشاعر هنا حقيقة معناها البدوى) . وأى فضول فى هذا البيان الذى استدعته المناسبة وجر اليه الحديث وهو ذو شجون ؟

قال حضرته : وفى صفحة ٢٠٣ قرأت قول ابن الخياط :

فلم أر الطرة حتى جرت   دموع عينى بالمرزيب

ثم قال وأنا أحفظها كالمرزيب وهى أصح وأبين . وأنا أقول كلتا الروايتين لا بأس بها والمعنى عليهما واحد

أما مانبه اليه فى صفحة ٢٢٠ من أن المراد بالفتى الطائى هو البحترى لا أبو تمام فلم يفت الشارح ، بل سبقه إلى التنبيه عليه منذ شهرين فى الاستدراك على الجزء الأول الذى طبع ملحقاً بالجزء الثانى ؛ وكان يجمل بحضرة الناقد الحكيم أن يطلع عليه قبل أن يسجل نقده على صفحات الرسالة الغراء ؛ وقد تداولت الأيدى الجزء الثانى من مدة غير قصيرة (يريد بالفتى الطائى أباعبادة البحترى لسبق ذكره فى هذه الأبيات) وقول حضرته إنه يريد بامرئ يصطاد نسر الجو بالنسر نفسه على جهة التشبيه بامرئ القيس (كما قلنا فى ذيل صفحة ٢٢٠) أخالفه فيه ، فقد يسوغ لى أن أرى الآن خلاف ما ذهبنا اليه معاً فى ذلك بل يصح أن يكون امرؤ القيس لا دخل له هنا ، وأن الشاعر (وهو ابن شاهين) إنما يرى نفسه كالبحترى الذى يزعم أنه ورث منه طرفاً كريماً وجواداً سابقاً أعنقت عليه قصيدته ، وسار مسرعاً عليه أدبه ، وأنه يريد (بامرئ يصطاد نسر الجو بالنسر) ممدوحه المقرى إقراراً من الشاعر بأنه أشعر منه كما صرح بذلك من قبل فى قوله :

ورثته منه ولكنما   من شاعر وافى الى أشعر

فالشاعر ابن شاهين هو نسر الجو (وقد اصطنع التوجيه والتورية فى اسمه (شاهين) نسر الجو ، والذى يصطاد نسر الجو بالنسر ويتغلب عليه هو المقرى الممدوح بالقصيدة ، يعنى أنه أقوى من النسر ، وأشد افتراساً من الشاهين . والغرض من هذا أنه أشعر وأقدر وذلك ظاهر واضح لمن يتأمل

ومثل ذلك ما أخذه حضرته على تعليقنا على مدينة (برديل) بصفحة ٢٥٧ ، فقد تلافينا هذا السهو بالاستدراك ، فنرجو حضرته أن يطلع عليه بصفحة ١٠ منه ، بل قد نبهنا إليه مرة أخرى فى الجزء الثالث وأشبعنا القول فى هذه المدينة ، وهدانا الله منذ زمن الى موقعها ، والى لغات العرب فيها ، بل الى لغات غير العرب ، وقلنا إنها هى مدينة بوردو ، وأطلنا الكلام فى ذلك بالجزأين الثانى والثالث

وفى الختام نقول لحضرة الكاتب أن اسم صاحب المرية هو (خَيْران) الفتى العامرى الصقلبى وإليه تنسب قلعة خَيْران بالأندلس . أما ما فى الاحاطة من أن اسمه (خيروان) فهو تحريف فاسد لا يعول عليه ، وإنما هو (خَيْران) (فَعْلان من الخير) وقد ذكرنا ترجمته وتكلمنا عليه طويلاً فى الجزأين الثالث والرابع (الذى يجرى الطبع فيه) والشارح يعرف من قديم (خَيْران) هذا فله أثر عظيم فى تاريخ العرب بالأندلس ، وهو مشهور لدى المؤرخين وليس من رجال الأندلس من يسمى خيروان أبداً

وأرجو من حضرة صديق الغيب أن يحمل حديثى هذا على

سافو على مسرح الأوبرا الملكي

لناقد الرسالة الفني

وهذه رواية أخرى تقتبس للمسرح وتلاق من النجاح ما بلغته « الجريمة والعقاب » وإن أضاع الاقتباس نواحي كثيرة من جمال الرواية القصصية على الرغم من أن مؤلفها العظيم الفونس دوديه اشترك مع مؤلف مسرحي آخر هو أدولف بيلو في وضع هذه المسرحية . ولكنها مع ذلك عظيمة تحوى شخصيات قوية وفيها دقة وصدق تصوير وجمال

تصف حال الشبان عندما يبلغون العشرين ويعرون بهذه المرحلة الخطرة من الحياة وهم في سذاجة وقلة تجريب يتصلون بالنساء فيقاسون من ألم الفراق والهجر والوصل والغيرة ما تنوء به كواهلهم ، فهى إنذار للشبان من بنات الهوى وتحذير لهم من الاتصال بهن والعيش معهن تحت سقف واحد ، فان من أخطر الأمور على الشاب أن يقع في حب واحدة منهن لأنه لا يستطيع أن يحتمل ماضيها ويغفر لها ما سلف من حبها لغيره ويكون الخطر أشد لو أن المرأة بادلته الحب الخالص فاذا حدث وخضع أحد الحبيبين للعقل والواجب وترك الآخر فما أشد الهجر وأمر الفراق ولهذا فقد أهدى دوديه القصة : « إلى أولادى عندما يبلغون سن العشرين »

الإخراج والتمثيل

يؤلمنى أن مخرج الفرقة القومية لا يقوم بدراسة الروايات كما يجب ، فازاء رواية كهذه كان من الخير للفرقة والفن أن يرجع إلى الرواية القصصية ليفهم كل شخصية على حقيقتها فيوفر على نفسه هذا التخبط في توزيع الأدوار وتفهيم ممثليه لروحها وهو لو فعل لما أسند دور سافو إلى السيدة دولت أبيض ، ولما عهد إلى على رشدى بدور جان جوسان أو على الأقل لأفهم كلا منهما الشخصية على حقيقتها حتى لا تكون الهوة بين ما رسم المؤلف وبين ما أبرز الممثلون سحيقة

ان أول ما يلفت نظر الناقد أن سافو دولت أبيض تكبر في السن عن سافو الفونس دوديه وفي هذا نقص يجب على الممثلة والمخرج أن يعملا على تغطيته ، ولكن طبيعة السيدة دولت جامدة وهى لا تليق لأدوار العاطفة ، ومن المؤلم أنها تعتقد أن البكاء وحده هو الوسيلة التى تستطيع بها أن تؤثر في النظارة وتصل الى قلوبهم ونسيت أن الصناعة وحدها ليست كافية فهى لم تتأثر بالقصة ولم تعش في هذه الشخصية وتحس بها والا لأبرزت ما يضطرم في نفسها من أحساسات متباينة ولم تقصر همها على الالقاء والبكاء وتبدو سطحية بكل معنى الكلمة

انظر اليها وهى تسرع بالقاء كلماتها في الفصل الأول ثم وهى تقف خلف جان ، ثم وهى في الحان لا تهتم بأن تبرز عاطفة ، بل تهتم بالالقاء ، وفي هذا الفصل الثانى بينما يكون الموقف على أشد ما فيه من حياة بين الممثلين تراه فجأة قد برد عند دخولها واشتراكها في الحديث معهم واتهامها لهم ، وكان الطبيعى أن يزداد حياة وقوة

كل هذه دلائل على أن دولت لم تستطع أن تسمو بالدور أو تؤديه على وجه مرض . على أنى لا أبخسها مواقفها في الفصل الخامس منذ دخول جان وحوارها معه . ثم وهى تلقى علينا الرسالة التى تكتبها له فقد أجادت الى حد بعيد . فهذه المواقف تلائم طبيعتها لأنها مواقف تخمد فيها العاطفة الثائرة ويعمل فيها العقل وتتغلب غريزة الأمومة والواجب ؛ وهذا يؤيد قولى بصلاحيتها لتأدية أدوار الأمومة

وكما أن دولت تكبر من سافو كذلك (على رشدى) لا يصلح لجان ، فليس هو بالشاب الريفي القوى ، وليس بالجميل الذى يجعل إحدى النساء تصرخ : « يا للفتى الجميل » وهو مع هذا كان بعيداً عن الشخصية بعداً تاماً إذ كان عبداً لتعاليم المخرج حتى كأنه يحاول أن يبرز لنا عزيز عيد الشاب في صباه لا جان جوسان

قلت إن الشاب كان ريفياً قوياً جامد العواطف ؛ فقد كان يجلس إلى مكتبه بينما سافو أمامه على كرسى فلا يتحرك إليها في تلهف بل يبقى مكانه يقرأ ، وهكذا عكس ما أبرزه على رشدى فقد كان في الفصل الأول متظرفاً ضعيفاً حتى كأنه باريسى ، بل وأكثر من ذلك كانت تبدو لنا منه جوانب الخنوثة وكان اهتمام على بالالقاء والصناعة أكثر من اهتمامه بابراز إحساساته وما يضطرم في نفسه من مختلف العواطف . ولست أسوق دليلاً أكبر من موقفه في الفصل الثانى حيث الفارق كبير بينه وبين منسى وعباس . وكذلك في الفصل الرابع ترى الصناعة واضحة يكشفها القاء عباس الهادئ الحزين الذى يؤدى بعاطفته

أكتفى بهذا اليوم وسأتحدث عن بقية الممثلين والترجمة كما أتحدث عن رواية المعجزة ؟

يوسف

خير محامله ، وأن يتنزل بقبول شكرى له وثنائى عليه أن عُنى بالكتاب وقدر العمل فيه قدره ونبّه الى ما اعتدّه هفوات ، وكلنا نتعاون في خدمة هذه اللغة الشريفة والنهوض بآدابها ونشر ثقافتها .

أحمد يوسف نجاتى
الأستاذ بدار العلوم العليا

فهرس الموضوعات للمجلد الثاني من السنة الرابعة

فهرس الكتاب للمجلد الثانى من السنة الرابعة